رودي بارت

الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية

المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه

ترجمة مصطفى ماهر

الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية

المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه

تأليف

رودي بارت

ترجمة

مصطفى ماهر

هنـــداوي

الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية

The Study of Arabic and Islam at German Universities

رودي بارت

Rudi Paret

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٦ ٣٣٢٤ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الألمانية عام ١٩٦٨.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠١١.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الدكتور مصطفى ماهر.

المحتويات

مقدمة المترجم	٧
مقدمة المؤلف	٩
بداية الاستشراق	١١
استشراق – استغراب	١٥
عصر التنوير وعصر الرومانتيكية	١٩
الدراسات الإسلامية علمٌ تاريخي	٢٣
المرحلة التالية لتطور الدراسات الإسلامية حتى العقد الرابع من القرن العشرين	٣٥
العناية بالدراسات العربية وتطوِّرها إلى العَقد الرابع من القرن العشرين	٥٣
الاستشراق الألماني منذ عام ١٩٣٣م	٦٥
الدراسات الإسلامية	٦٧
الدراسات العربية منذ عام ١٩٣٣م	٨٥
مؤسَّسات ومنظمات	٩١
نظرة إلى الوراء ونظرة إلى الأمام	٩٥
فهرس بأسماء المستشرقين الذين ورد ذكرهم بالكتاب	٩٩

مقدمة المترجم

مؤلف هذا الكتاب الأستاذ الدكتور رودي بارت عالم جليل كرَّس حياته لخدمة علوم العربية وعلوم الإسلام، وصنَّف فيها عددًا كبيرًا من الدراسات العميقة سدَّ بها ركنًا هامًّا في مكتبة الاستشراق. وحسبنا أن نذكر ترجمته للقرآن التي عكف على ترجمتها عشرات السنين، وأخرجها تباعًا بين عام ١٩٦٣م وعام ١٩٦٦م، تلك الترجمة التي تشهد بتبحره في لغة الضاد، وبفهمه الواسع لمعاني الكتاب الكريم. أما أعماله الأخرى فنشير منها إلى كتاب له عن النبي محمد ﷺ، وإلى دراسة الرواية الشعبية المصرية «سيف بن ذي يزن»، وإلى دراسة في قصص الهوى في الأدب العربي القديم، ودراسة في أدب المغازي، وفي الثقافة الإسلامية بالعصر الوسيط، وفي صلة الإسلام بالثقافة الإغريقية.

والكتاب الذي ترجمناه له ونقدمه للقارئ العربي يعرض صورة لتطور الدراسات العربية والدراسات الإسلامية في الجامعات الألمانية منذ منتصف القرن التاسع عشر على وجه التقريب. ولهذا فإننا نستطيع، دون تورُّط في خطأٍ أو مبالغةٍ، أن نعتبره تكملة بطريقة أخرى للدراسة القيمة التي ألفها الأستاذ الدكتور: يوهان فوك بعنوان: «الدراسات العربية في أوروبا (مجموعة دراسات في علوم العربية والسامية وعلوم الإسلام، أخرجها ريشارد هارتمَن وهِلموت شيل)، ثم تناولها من جديد بالزيادة والتوسيع ونشرها في عام ١٩٥٥م في لايبتسج باسْم: «الدراسات العربية في أوروبا منذ البداية إلى مطلع القرن العشرين». على أنه لا ينبغي أن يفوت علينا أن الأستاذ بارت شمل بكتابه مجالًا أوسع، فهو لا يكتفي بالدراسات العربية، بل يضم إليها الدراسات الإسلامية بأفرعها المختلفة.

وقد تعرض المؤلف في أجزاء من الكتاب لموضوع هام هو: مدى تقبُّل أهل الشرق لدراسات المستشرقين. والرأي عنده أن دراسات المستشرقين تقابَل بالشك والريبة، واستشهد بكتاب صغير للدكتور محمد البهي بعنوان: «المبشرون والمستشرقون ومواقفهم من

الإسلام». والحقيقة أن الاستشراق ارتبط في بدايته — كما يقرر الأستاذ يوهان فوك في كتابه المشار إليه — بالحركة الصليبية، وأنَّ المستشرقين الأُوَل كانوا يعتبرون عملهم نوعًا من الكفاح ضد الإسلام والعروبة. وكذلك ارتبط الاستشراق في أوقات بعينها — وفي كتاب الأستاذ رودي بارت نفسه أمثلة على ذلك — بالاستعمار. ولهذا فلا ينبغي أن يكون من المستغرب أن يوجد بين المسلمين والعرب اتجاه يقوم على الارتياب والتشكك في نوايا المستشرقين. على أننا لا ننكر الاهتمام الكبير الذي حظي به المستشرقون الذين تتسم أعمالهم بالموضوعية العلمية في الشرق. وليس أدل على ذلك من تلك العبارة التي قدَّر بها الأستاذ الدكتور طه حسين المستشرقين وأعمالهم: «كيف يُتصور أستاذٌ للأدب العربي لا يُلِم بما انتهى إليه الفرنج المستشرقون من النتائج العلمية المختلفة، حين درسوا تاريخ الشرق وآدابه ولغاته؟ وإنما يُلتمَس العلم الآن عند هؤلاء الناس» (من كتاب «الأدب الجاهلي»، انظر مَجلة العربي العدد ١٠٢، ص ١٤٤ و١٤٥ و١٤٦).

أما أعمال المستشرقين في مجال الدراسات الإسلامية، فهي أعمال لها أهميتها الكبرى، ولكن المسلمين ينظرون إليها نظرة تختلف عن الأعمال التي ينشئها العلماء المسلمون، فالإسلام بالنسبة للمسلمين ليس علمًا فحسب، ولكنه قبل كل شيء آخر دين. ولا بدَّ أن نسجل بالإنصاف جهود المستشرقين الجادين غير المغرضين حتى في مجال الدراسات الإسلامية نفسها. ونحيل القارئ مرة ثانية إلى مجلة العربي السابقة الإشارة إليها.

والرأي عندنا أن الأعمال الكبرى لكبار المستشرقين ينبغي أن تُنقل بصفة منتظمة إلى اللغة العربية، حتى يُفيد منها الباحثون. حقيقةٌ أن عددًا من هذه الأعمال قد ترجم ونشر بالفعل، ولكن ما بذل في هذا الميدان من جهد قليل. ويفيد الكتاب الذي نقدمه هنا في التعريف بأعمال المستشرقين الألمان، ونحن بحاجة إلى كتب مماثلة تعرفنا بأعمال المستشرقين في جامعات البلاد الأخرى في شتى بلاد الدنيا.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أسجل شكري للأستاذ الدكتور رودي بارت على تفضله بمراجعة ترجمتي لكتابه، وعلى مقترحاته المتعددة التي أفدت منها.

وبعد انقضاء ما يقرب من نصف قرن على الترجمة التي صدرت في القاهرة في مايو ١٩٦٧م تناولتها هنا بالمراجعة والتصحيح والتجديد في هذه الطبعة الجديدة المتقنة.

دكتور مصطفى ماهر
القاهرة: ٢٠١٠م

مقدمة المؤلف

في صيف عام ١٩٣٠م أتيحت لي فرصة القيام من جامعة هايدلبرج، حيث كنت مضطلعًا بالدراسات الشرقية، بزيارة تيودور نولدكه (١٨٣٦–١٩٣٠م) في مدينة كارلسروهه القريبة، لزيارة أستاذ الاستشراق الجليل الذي حظي بتقدير عالمي في مادته.

كانت هذه الزيارة خبرة جد مؤثرة في نفس الزائر الذي لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره بعد، والذي لم يكن قد بدأ — إلا منذ قليل — في توسيع أفق علمه وتخصصه، وفي انتهاج طريق علمية مستقلة لإنمائه؛ إذ أوقفته أمام عالم هرِمٍ بلغ من العمر أكثر من ثلاثة أضعاف ما بلغ هو، ومكَّنته من التناقش معه في أمور العلم. كان نولدكه آنذاك، وهو في الرابعة والتسعين، يعاني طبعًا من طائفة من العلل الجسمانية، ولكنه كان من الناحية العقلية نشيطًا يقظًا على نحو يثير الدهشة، وكان يدخل عن طيب خاطر في مناقشة موضوعات خارجة عن ميادين تخصصه واهتمامه ذاتها. وكان يضمر وراء كل كلمة من كلماته ذلك الضرب من صفاء الفكر الإنساني الذي يقنع المستمع إلى عَالِمٍ، بصدقها منذ البداية.

لقد أحسست في هذا اللقاء كأني واحد من طلاب العلم خرج طلبًا للعلم، ليؤدي فروض الاحترام لشيخ ذائع الصيت، وليتصل عن طريقه بتقاليد العلم وتراثه صلة مباشرة شخصية.

بداية الاستشراق

كل مَن يشتغل بالاستشراق، حتى ولو بجزء صغير منه، يحس بالامتنان لتراث الاستشراق ويعترف بالشكر للجهود العلمية التي بذلها آخرون قبله، علماء فرادى، أو أجيال كاملة من العلماء. والميدان العلمي، الذي وهب أمثالنا أنفسهم له، ميدان يختص بعالَم، لا نتصل نحن به بصلة الانتماء، وما كنا لننفذ إليه، إن لم نكن نحتكم بين أيدينا على مُعِينات معينة تمكننا من توسيع آفاقنا، ومن إلقاء نظرة إلى ذلك العالم الغريب علينا. ولو اقتصر أمر الصعوبات في ذلك المسعى على الصعوبات اللغوية، لكَفَت عائقًا لا يُقهر، إن لم تكن هذه المعِينات بين أيدينا. فنحن بحاجة إلى كتب في قواعد اللغة وإلى قواميس لنشق بها طريقنا إلى اللغة العربية واللغة الفارسية واللغة التركية، وهي لغات لم نلم بأدنى طرَف منها في المدارس. لم تنشأ كتب النحو والقواميس هذه مرة واحدة، بل جاءت ثمرة جهود مضنية بذلتها الأجيال المتعاقبة. وترتبط بصعوبة تعلم اللغات المشار إليها صعوبةٌ أخرى؛ إذ ينبغي على طالب هذه اللغات أن يحاول أن يشق طريقه إلى التعرُّف على العالم الفكري الذي تجسَّم في التعبير الأدبي لهذه اللغات، وخاصة اللغة العربية، والذي أصبح هذا التعبير الأدبي سجلًّا له. ولا يمكن أن يتم هذا إلا بالاعتماد على كتب علمية قام بتأليفها علماء متخصصون سابقون استندوا فيها إلى أعمال مَن سبقوهم. وهكذا كلما نفذنا إلى المادة وتوغلنا فيها، تبيَّنا بوضوح أكبر، أن كل عالم من العلماء يبني على أساسٍ مِن نتائج بحوث سلفه، يتبناها تارةً، وتارةً يُكمِلها ويحسِّنها، وأن النتائج التي نتوصل نحن إليها، نتائج غير نهائية، بل نتائج تنتظر أن يتجاوزها ما سيقوم به الجيل التالي من بحث (إن لم يكن الجيل نفسه). أو نوجز فنقول: إنَّ كل شيء في حركة متصلة؛ كل عالِم يكمل البناء على أساسٍ أرساه آخرون سبقوه. وعلم الاستشراق — كما هو بين أيدينا اليوم — نتيجة نشاط أجيال عديدة من العلماء.

ومع ذلك فلا بدَّ أن الاستشراق قد بدأ بوصفه علمًا يومًا ما. فمتى كان ذلك؟ وما هي القوة الدافعة التي كَمَنَت وراء ذلك؟

إذا نظر المرء إلى الوراء؛ إلى تاريخ تطور الاستشراق، ولم يتردَّد في التبسيط رغبة في زيادة الوضوح، فإنه يستطيع أن يقول: إن بداية الدراسات العربية والإسلامية ترجع إلى القرن الثاني عشر. ففي عام ١١٤٣م تمت ترجمة القرآن، لأول مرة، إلى اللغة اللاتينية بتوجيه من الأب بيتروس فينيرابيليس رئيس دير كلوني، وكان ذلك على أرض إسبانية. وعلى الأرض الإسبانية، وفي القرن الثاني عشر أيضًا، نشأ أول قاموس لاتيني عربي. وفي القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر بذل ريموندس لالوس — المولود في جزيرة ميورقة — جهودًا كبيرة لإنشاء كراسي لتدريس اللغة العربية، وكان قد تعلم اللغة العربية على عبدٍ عربي. وكان الهدف من هذه الجهود في ذلك العصر وفي القرون التالية هو التبشير، وهو إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام واجتذابهم إلى الدين المسيحي. ويمكن الاطلاع على هذا الموضوع بتفصيلاته في الكتاب الكبير الذي وضعه نورمَن دانيل باسم «الإسلام والغرب» (١٩٦٠م، الطبعة الثانية ١٩٦٣م).[١] كان موقف الغرب المسيحي في العصر الوسيط من الإسلام هو موقف الدفع والمشاحنة فحسب. صحيحٌ أن العلماء ورجال اللاهوت في العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى في تعرُّفهم على الإسلام، وكانوا يتصلون بها على نطاق كبير، ولكن كل محاولة لتقييم هذه المصادر على نحو موضوعي نوعًا ما، كانت تصطدم بحكم سابق يتمثل في أن هذا الدين المعادي للمسيحية لا يمكن أن يكون فيه خير. وهكذا كان الناس لا يولون تصديقهم إلا تلك المعلومات التي تتفق مع هذا الرأي المتخَذ من قبل، وكانوا يتلقفون بنهَمٍ كل الأخبار التي تلوح لهم مسيئة إلى النبي العربي وإلى دين الإسلام.

وعلى هذا الاعتبار تختلف المراحل الأولى للدراسات العربية والإسلامية اختلافًا جوهريًّا عما نفهمه اليوم — أو على وجه أدق: منذ منتصف القرن التاسع عشر تقريبًا — من هذين العلمين. فنحن، معشر المستشرقين، عندما نقوم اليوم بدراسات في العلوم العربية والعلوم الإسلامية لا نقوم بها قط لكي نبرهن على ضعة العالم العربي الإسلامي، بل على العكس، نحن نبرهن على تقديرنا الخاص للعالم الذي يمثله الإسلام ومظاهره المختلفة، والذي عبَّر عنه الأدب العربي كتابة. ونحن بطبيعة الحال لا نأخذ كل شيء ترويه المصادر على عواهنه

[١] Norman Daniel, Islam and the West, 1960, 2. Aufl. 1963.

دون أن نُعمل فيه النظر، بل نقيم وزنًا فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخي أو يبدو كأنه يثبت أمامه. ونحن في هذا نطبق على الإسلام وتاريخه، وعلى المؤلفات العربية التي نشتغل بها، المعيار النقدي نفسه الذي نطبقه على تاريخ الفكر عندنا، وعلى المصادر المدوَّنة لعالمنا نحن. وإذا كانت إمكانات معرفتنا محدودة — وهل يمكن أن تكون إلا كذلك؟ — فإننا نؤكد بضمير مطمئن أننا في دراساتنا لا نسعى إلى نوايا جانبية غير صافية، بل نسعى إلى البحث عن الحقيقة الخالصة. أما الرأي المضاد لذلك، والذي نشره عالِم الأزهر الأستاذ البهي في كُتيِّبه الذي صدر أخيرًا باسم «المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام»، فنحيط به علمًا ونحن هادئو البال (انظر مناقشة هذا الكتيب بقلم محمد يحيى هاشمي، حلب، في: “Die Welt des Islams”, N. S. 8, 1962–63).

استشراق – استغراب

الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة. وأقرب شيء إليه إذن أن نفكر في الاسم الذي أطلق عليه. كلمة استشراق مشتقة من كلمة «شرق». وكلمة شرق تعني مشرق الشمس، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق، أو علم العالم الشرقي. والأمر إلى هذا الحد واضح كله. ولكن ما معنى كلمة شرق في هذا المقام بالذات؟ الظاهر أن اسم الشرق تعرض لتغيير في معناه، فالشرق بالقياس إلينا، نحن الألمان، يعني العالم السُّلافي، العالم الواقع خلف الستار الحديدي. وهذه المنطقة تختص بها علميًّا بحوث شرق أوروبا Osteuropaforschung أما الشرق الذي يختص به الاستشراق، فمكانه جغرافيًّا في الناحية الجنوبية الشرقية بالقياس إلينا. والمصطلح يرجع إلى العصر الوسيط، بل إلى العصور القديمة، إلى الوقت الذي كان فيه البحر المتوسط يقع — كما قيل — في وسط العالم، وكانت الجهات الأصلية تتحدد بالنسبة إليه. فلما انتقل مركز ثقل الأحداث السياسية بعد ذلك من البحر المتوسط إلى الشمال بقي مصطلح الشرق رغم ذلك دالًّا على الدول الواقعة شرق البحر المتوسط.

كذلك تعرَّضت لفظة «الشرق» في أعقاب الفتوحات العربية الإسلامية لتغيير آخر في معناها، أو إذا شئنا دقةً أكثر، تعرَّضت لاتِّساعٍ في نطاق مدلولها. فقد انطلق الفاتحون، في ذلك الوقت، من شبه الجزيرة العربية لا ناحيةِ الشمال والشرق فحسب، بل ناحية الغرب كذلك، وزحفوا في غضون عشراتٍ من السنين إلى مصر وشمال أفريقيا حتى بلغوا المحيط الأطلسي. واستوطن الإسلام قطاع بلدان شمال أفريقيا دينًا وتعرَّب السكان تدريجيًّا، وهم الأقباط في مصر والبربر غربها. ومنذ ذلك الحين تعتبر مصر وبلدان شمال أفريقيا ضمن الشرق، ويختص الاستشراق، وإن كان اسمه — الاستشراق — يُفترض أنه يختص، بالبلدان الشرقية دون غيرها.

ومهما يكن من أمر، فإن الاسم لا يبيِّن بوضوحٍ مستقيمٍ المقصود منه بالضبط، والمهم هو الموضوع ذاته. والموضوع ذاته يفتح مجالًا آخر للتفكير.

الاستشراق في ألمانيا حاليًّا، وفي العالم الأوروبي الحديث كله، مادة علمية معترف بها من الجميع. ولا حاجة بها — وإن قل عدد المشتغلين بها — إلى البرهنة على أنها مادة علمية جديرة بالوجود، فقد تم لها هذا، وتوشك أن تكون ممثَّلة في كل جامعة من الجامعات بكرسي رسمي يشغله أستاذ. ثم هناك عدد عظيم من وظائف المدرسين والمعيدين في تخصص الاستشراق، إلى جانب الأساتذة، ويعني هذا أن الناشئة من المستشرقين يَلقَون ما يؤمِّن مستقبلهم من الناحية المالية نوعًا ما. ونحن جميعًا، المتمتعين بهذه النظم، نعترف شاكرين بأن المجتمع ممثَّلًا في الحكومات والمجالس النيابية يضع تحت تصرفنا الإمكانيات اللازمة لإجراء بحوث الاستشراق، وللحفاظ على نشاطنا التعليمي في هذا المضمار. ويسرنا أن نرى كل عام أفرادًا من الحاصلين على شهادة إتمام الدراسة الثانوية يدفعهم اهتمامهم بالمادة، وتحفزهم موهبتهم اللغوية إلى الاتجاه لدراسة العلوم العربية أو الإسلامية أو أي فرع من أفرع الاستشراق الأخرى، ويحدوهم الأمل في أن يتمكنوا في المستقبل، بطريقة أو بأخرى، من المشاركة في هذه الدراسات مشاركة المنتجين. وما تطلبه الدولة والمجتمع منا، معشر المستشرقين، هو بصفة عامة العمل بوصفنا مدرسين وباحثين متخصصين. أما التصرُّف في أمر الموضوعات الخاصة التي ينصب عليها الدرس والبحث فمتروك لنا، ونحن نعرف كيف نقدِّر هذه الحرية، ونبذل جهودنا لنرُد على هذه الثقة التي حُيِّينا بها، بالقيام بما يحققها من عملٍ مخلصٍ ساعٍ إلى الهدف المرجوِّ في مهنتنا. وعملنا على مستوى العلماء يسعى إلى هدف بعينه هو: اختراق الأفق الفكري الذي تفرضه البيئة حولنا، وإلقاء نظرة إلى عالم الشرق، لكي نتعلم من الكيان الغريب علينا كيف نُحسِن فهم إمكانيات الوجود الإنساني، وكيف نحسن بهذا فهم ذاتنا نحن في نهاية المطاف.

ولا بأس من أن ننتهز هذه الفرصة فنثير سؤالًا، ولو من ناحية المبدأ، هو السؤال عن إمكانية أن ينشأ في الناحية الأخرى، أي في العالم العربي الإسلامي، اتجاه للبحث، شبيه بالدراسات الإسلامية عندنا، ولكن في الوجهة المقابلة، يهدف إلى دراسة تاريخ الفكر في العالم المسيحي الغربي وتحليله بطريقة علمية. ويمكن أن يطلق على مثل هذا الاتجاه في البحث — إن أُخِذ مأخذ الجِد وأُرسيَتْ له قواعده الثابتة بوصفه نظامًا — علم الغرب أو باختصار «الاستغراب». وقد دعا الدكتور محمد رحبار في المؤتمر الإسلامي العالمي الذي انعقد في لاهور في ديسمبر ١٩٥٧م-يناير ١٩٥٨م، بحماس إلى هدف من هذا القبيل،

ولكنه لقي معارضة شديدة. ولنترك هذه النقطة العويصة الحساسة وشأنها الآن، ونكتفي بتقرير أن الحكم الذي يكوِّنه الناس في البيئات الإسلامية عن العالم المسيحي الغربي، حكم ما زال يشوبه — في أغلبه — لون الدفع والمشاحنة الشديد، ثم بتقرير أن هناك أيضًا مسلمين مثقفين كثيرين يكنون للعالم المسيحي الغربي تقديرًا موضوعيًّا. فلنأمل أن يكون اتجاه هؤلاء في المستقبل مدرسة، وأن تنتشر بالتدريج صورة موضوعية لعالم الغرب بين الجماهير الواسعة للشعب وبين رجال الدين المسلمين وبين المتخصصين وغير المتخصصين! فإن هذا من شأنه أن يؤدي إلى تحقيق تفاهم أوسع بين العالمين اللذين ظلا منذ فجر العصر الوسيط قرونًا طوالًا يقفان أحدهما من الآخر موقف العداء.

عصر التنوير وعصر الرومانتيكية

تطوُّر الدراسات العربية

لم يتَّبع تطوُّر الاستشراق من مراحله الأولى في العصر الوسيط إلى مرحلة التحوُّل النهائي إلى علم قائم على النقد التاريخي، طريقًا مباشرة مستقيمة، ولم يتم للاشتغال بالشرق وبمحمد وبالدين الذي نشره التحرُّر من طريقة البحث اللاهوتية المبنية على الدفع والمشاحنة إلا في العصر الحديث وتدريجيًّا. ولكن الجهود التي بُذِلَت لإنصاف عالَم الشرق ورسْم صورة له مستمَدة من المصادر تعرَّضت من حين لآخر لاتجاهات اعترضت سبيلها، أو غطت عليها وأدت إلى تشويه صورته. كان من بين ممثلي حركة التنوير مَن رأوا في النبي العربي أداة الله ومشرِّعًا حكيمًا ورسولًا للفضيلة وناطقًا بكلمة الدين الطبيعي الفطري مبشرًا به. وصحب هذا الاتجاه تحمس رومانتيكي لكل ما هو شرقي، فلا عجب أن يكون لأنطوان جالان (١٦٤٦–١٧١٥م) تأثير بالغ الشدة على جماهير غفيرة من القراء بالترجمة الأولى التي أنشأها لمجموعة القصص والحكايات العربية العظيمة «ألف ليلة وليلة» وجعلها مناسبة للذوق الفرنسي في ذلك العصر. وقد أثرت على يوهان فولفجنج فون جوته، في القرن التالي، تأثيرًا متنوع الجوانب، كما أثبتت كاتارينا مومزن أخيرًا في بحوثها التفصيلية. أما اللقاء المثمر بحقٍّ الذي تم لجوته مع الشرق، فيرجع إلى يومٍ اتصل بقصائد الشاعر الفارسي حافظ في ترجمة هَمَر بورجشْتَل. يقول جوته في كلمة دوَّنها بيومياته عام ١٨١٥م: «كان لزامًا عليَّ أن أقف موقف المنتج، لأني إن لم أفعل، ما كنت أستطيع أن أصمد أمامه؛ أمام هذه الظاهرة القوية، ولقد كان تأثيرها في نفسي شديدًا حيًّا، شدةً وحيويةً بالغتين. كانت

الترجمة الألمانية بين يديَّ، وكان عليَّ أن أجد فيها دافعًا يدفعني إلى المشاركة فيها. وانطلق من وجداني كل ما كان كامنًا أو معتمِلًا فيه أشياء تشبه المادة والمعاني التي اطلعْت عليها، انطلق بدرجة من العنف شديدة جعلتني أحس في نفسي حاجة ملحة إلى أقصى حد تدفعني إلى الهرب من العالم الواقعي الذي يتهدَّد ذاته سرًّا وجهرًا، الهرب إلى عالم خيالي يترك لرغبتي وقدرتي وإرادتي مهمة الاشتراك السعيد فيه.» وكانت ثمرة هذا اللقاء ما نجده بين دَفتي «الديوان الغربي الشرقي». هذا الكتاب الذي أَحَبَّه الكثيرون من مبجلي الشاعر العظيم واعتبروه ثمرة من أعظم الثمار وأثمنها، والتي جادت به قريحته المنوعة الجوانب. والمرء إذا اطلع على الجزء الذي ألحقه جوته بالديوان وأسماه «مذكرات ومقالات»، تبيَّن كيف جمع جوته بهِمَّةٍ كل ما نما إلى خبرته من معلومات عن عالم الشرق، وكيف ناقشها ومحَّصها بقوة. أما أن الديوان العربي الشرقي «يصح أن يسمى بالعهد الأعظم لبحوث الشرق» كما قال هانس هاينرش شيدر (١٨٩٦–١٩٥٧م) في كتابه Goethes Erlebnis des Ostens[1] مصطنعًا عبارة بلاغية، فأمْرٌ لا يوجَد بالديوان ما يمكِّن من استنتاجه. كان الدافع إلى إبداع الديوان هو النموذج الفارسي المتمثل في الشاعر حافظ، ولكن الديوان رغم تسميته بهذا الاسم الشرقي، لا يزيد ولا ينقص عن أن يكون حوارًا شعريًّا لجوته مع نفسه، وليس له في أساسه علاقة بالاستشراق. إذا أردنا أن ننسب شاعرًا ألمانيًّا إلى الاستشراق، فالأمثل أن نذكر فريدرش روكرت (١٧٨٨–١٨٦٦م)، الذي كان يجد القوافي الألمانية بسهولة فائقة، والذي ترجم — تحت اسم Verwandlungen des Abu Seid von Serug — مقامات الحريري ترجمة أدبية أمينةً أمانةً تعطي للقارئ الألماني انطباعًا مقابلًا لما يعطيه الأصل العربي من انطباع. لهذا فإن Verwandlungen des Abu Seid von Serug يُعتبر بحقٍّ عيِّنة من الأدب الألماني الذي بلغ الكمال في شكله، ويُعتبر إلى هذا، عملًا من أعمال الاستشراق.

قلنا: إن تطوُّر الاستشراق لم يتبع طريقًا مباشرة مستقيمة، ولم يتشكل بوصفه علمًا إلا عندما تأكد استعداد الناس للانصراف عن الآراء السبقية، وعن كل لون من ألوان الانعكاس الذاتي، وللاعتراف لعالم الشرق بكِيانه الخاص الذي تحكمه نظمه الخاصة، وعندما اجتهدوا في نقل صورة موضوعية له ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا. وليس من الممكن تحديد الفترة التي بدأ فيها مثل هذا الاتجاه الجديد على وجه الدقة. فإذا وضعنا بقصد

[1] لايبتسج ١٩٣٨م، انظر ص٧٤. والنص الذي استشهدنا به قبل ذلك من الكتاب نفسه ص١١.

التبسيط «منتصف القرن التاسع عشر»، فإننا نعني بهذا فقط أن الصفة العلمية بالمعنى الحديث ظهرت في هذا الوقت على الاستشراق بوضوح أكثر من ذي قبل. ولكن النية المتجهة إلى فهم الموضوعات فهمًا موضوعيًّا، كانت موجودة قبل ذلك بكثير، وجودًا يمكن إثباته بالأدلة والشواهد، وكانت أوضح ما تكون في مجال الدراسات اللغوية، ودراسات اللغة العربية خاصة، بالمعنى الضيق لهذه الانطلاقة. فقد كان تعلم اللغة العربية وتعليمها يقتصران على التمكن من وقائع مجرَّدة خالصة، ولم يكن الاختلاف في الأمور الدينية، وما يتبعه من خطر تشويه المضمون، يظهر إلا بعد التمكُّن من اللغة، وانتهاج سبيلها إلى الثقافة العربية الإسلامية الغريبة المدوَّنة. (وهذا هو السبب الذي يظل من أجله المستشرقون العاملون في الصعيد اللغوي بمنأًى عن هجوم الرأي العام العربي الإسلامي في أيامنا هذه، في حين أن المستشرقين العاملين في صعيد الدراسات الإسلامية يُتَّهمون بسوء النية في أحوالٍ ليست بالنادرة). من أساتذة العربية الأول نذكر بالثناء: الهولندي توماس أربنيوس (١٥٨٤–١٦٢٤م) الذي نَشَر في عام ١٩١٣م كتابه Grammatica Arabica (النحو العربي)، وهو أول عرض منهجي للغة العربية الفصحى بقلم مؤلف أوروبي. وقد ظل هذا الكتاب طوال قرنين من الزمان يُعَدُّ الكتاب الأوحد لتعليم اللغة العربية، وتعددت طبعاته، وترجمه ي. د. ميشائيليس في عام ١٧٧١م إلى اللغة الألمانية. أما العالم الفرنسي سيلفستر دي ساسِّي (١٧٥٨–١٨٣٨م) فكان عالمًا رفيع القدر، وكان له تأثير يفوق تأثير أربنيوس بكثير، وكان يعمل منذ ١٧٩٥م أستاذًا للغة العربية في المدرسة الخاصة للغات الشرقية الحية المنشأة حديثًا في باريس. كان كتابه Grammaire arabe (النحو العربي) وكتابه Chrestomathie arabe (منتخب من أدب العرب) الكتابين الأساسيين في الدراسات العربية بالمنطقة الأوروبية كلها في حياته وبعد مماته، وظلا كذلك عشرات السنين. كان سيلفستر دي ساسِّي، بالإضافة إلى ما قام به من نشريات، يعمل مدرسًا، أولًا وقبل كل شيء، ويرجع إليه فضل تحوُّل باريس إلى مركز الدراسات العربية، وكعبة أَمَّها التلاميذ والعلماء من مختلف البلاد، ليتعلموا على يديه. ذهب إليه من ألمانيا، على سبيل المثال لا الحصر، جيورج فيلهلم فرايتاج (١٧٨٨–١٨٦١م) مؤلف Lexicon Arabico-Latinum (المعجم العربي اللاتيني) الذي لا يزال يُستعمل إلى اليوم. وجوستاف فلوجل (١٨٠٢–١٨٧٠م) الذي نشر القرآن، ونشر فهرسًا لآيات القرآن، وكتاب الفهرست لابن النديم، وكتاب كشف الظنون لحاجي خليفة. وهاينرش ليبرشت فلايشر (١٨٠١–١٨٨٨م) الذي نقل فرعًا من شجرة مدرسة العربية الباريسية إلى لايبتسج. واشتهر فلايشر بملاحظاته

النقدية وإضافاته التي كان يخص بها المؤلفات التي ظهرت في موضوعات الدراسات العربية، وكان له في ذلك المضمار فضل كبير، فأخرج مقالاته Beiträge zur arabischen Sprachkunde (مقالات في علم اللغة العربية) التي تدور حول كتاب النحو العربي لدي ساسي، وأخرج دراسات تتعلق بمصنف دوزي المسمى Supplément aux dictionnaires arabes (ملحق للقواميس العربية). هذه المقالات وغيرها من المقالات التي جاد بها يراعه في ميدان الدراسات العربية، والتي تكون ثلاثة مجلدات من «المقالات الصغيرة» سيُعاد طبعها قريبًا، مما يدل على مدى الأهمية التي ما زالت تتسم بها إلى اليوم. كذلك أخرج طبعة دقيقة من تفسير البيضاوي ما زالت تُستعمل إلى يومنا هذا. هذا إلى أن فلايشر قام بعمل تنظيمي مشكور؛ إذ اشترك اشتراكًا حاسمًا في تنظيم المستشرقين الألمان عام ١٨٤٥م في «الجمعية الشرقية الألمانية»، تلك الجمعية العلمية التي أصدرت مجلة باسمها، اكتمل لها الآن ١١٥ عددًا، كما أصدرت «دراسات في علم الاستشراق» وأثرت في عصرنا الحاضر تأثيرًا خِصبًا هائلًا، حتى إنه لا يمكن الآن تصوُّر تاريخ الاستشراق في ألمانيا بدونها. وكان فلايشر، كما كان دي ساسِّي من قبله، أستاذًا جامعيًّا أولًا وقبل كل شيء آخر. فلما مات نهض بتراث المدرسة العربية، بلايبتسج، ألبرت زوتسين (١٨٤٤–١٨٩٩م)، ثم أوجُست فيشر (١٨٦٥–١٩٤٩م)، وكان أوجست فيشر تلميذًا لهاينرش توربِكه (١٨٣٧–١٨٩٠م) الذي مات مبكرًا، وكان في زمانه تلميذًا لفلايشر.[٢]

[٢] التاريخ المكتوب بعد اسم أحد المؤلفين هو تاريخ ميلاده إذا كان على قيد الحياة، أو تاريخ ميلاده ثم وفاته إذا لم يكن على قيد الحياة. أما التاريخ المكتوب بعد عناوين الكتب فهو تاريخ صدروها. (مترجم)

الدراسات الإسلامية علمٌ تاريخي

البداية

يرتبط الإسلام بالعروبة بعلاقة تبادل فريدة. كان العرب يعيشون منذ قرون طويلة في بوادي شبه الجزيرة وواحاتها التي سُمِّيَت نسبة إليهم، يعيثون فيها فسادًا — على حد حكم سكان البلاد المتحضِّرة المتاخمة — حتى أتى محمد ودعاهم إلى الإيمان بإلهٍ واحدٍ خالقٍ بارئ، وجمعهم في كِيان واحد متجانس. كان الشعر العربي قد أثمر أكرم ثماره، عندما انطلقت نغمات آيات القرآن وسوره لأول مرة في مكة، وهو أقدم أعمال الثقافة الإسلامية العربية الخاصة المدوَّنة. ولكن العالم الواسع المترامي الأطراف ما كان ليحس بالعرب لو لم يتحولوا، بفضل صلتهم بالإسلام، إلى عامل من عوامل القوة السياسية ويصبحوا بذلك ذوي أهمية — إن صح هذا التعبير. ولو لم يتلقف الناس القصائد العربية القديمة متأخرًا لتكون شواهد على لغة القرآن المقدسة، لانتقلت هذه القصائد بالرواية إلى أنحاء البادية ثم لهوَتْ إلى هوة النسيان، ولما أصابت الشهرة التي أصابتها اليوم. لهذا كانت ظاهرة الإسلام ظاهرة تلقى أسبقية وأفضلية في ميدان البحوث الاستشراقية، أو على الأدق في ميدان البحوث العربية الإسلامية. ولهذا أيضًا كان لزامًا علينا أن نتعرَّض أولًا، في إطار أوسع، لتطوُّر الدراسات الإسلامية وحدها في عصر نولدكه، وفي الفترة التالية له. ولن ننظر في هذا المقام — على الأقل مؤقتًا — إلى الدراسات المتعلقة بالآداب، والتي لا تعالج موضوعات دينية خاصة، ولا إلى الدراسات المتعلقة بالشعر العربي القديم، ولا ينبغي أن نغفل مع ذلك أن هذه الدراسات كانت تلقى الاهتمام والعناية في الوقت نفسه، بل إنها كانت في أحيان كثيرة تلقى الاهتمام والعناية من العلماء أنفسهم. ويكفي أن نشير إلى نولدكه الذي نشط

في ميدان الدراسات الإسلامية، ونشط في الوقت نفسه في ميدان الدراسات الدائرة حول الشعر العربي القديم.

وفي الأعوام ١٨٣٣ و١٨٤٣ و١٨٤٤م ظهرت مؤلفاتٌ فتحت، كلٌّ على طريقته، آفاق العصر الحديث في البحث التاريخي النقدي الذي تناول محمدًا وبداية الإسلام، من هذه المؤلفات: «النبي محمد، حياته وتعاليمه»، و«مدخل تاريخي نقدي إلى القرآن» لجوستاف فايل (١٨٠٨–١٨٨٩م)، كان هذا الكاتب من أصل يهودي، تَرَبَّي تربية تلمودية، ثم درس بالجامعات الألمانية وعرَف المنهج التاريخي. ويمتاز كتابا جوستاف فايل بأنهما من ناحية الموضوع أكثر شمولًا، وكتاب السيرة خاصة يستحق أن يُعتبر فاتحة عصر جديد. فإذا كان الكتابان لا يجدان اليوم قراءً يحفِلون بهما، فمَردُّ ذلك إلى أن البحث في حياة محمد قد تقدم في هذه الأثناء وظهرت نتائجه في منشورات حديثة قريبة المنال. وقد استعمل فايل في سيرته كل المصادر التي أمكنه الوصول إليها بكل الطرق، ورحل خاصة إلى مدينة جوتا ليبحث في المكتبة الأميرية بها عن مخطوطات تختص بموضوعه، ووجد كتاب دِيار بَكْري المسمى «تاريخ الخميس في أحوال أنفَس نفيس»، والسيرة الحلبية، وهما كتابان نشآ في القرن السادس عشر والسابع عشر، ولكنهما مع ذلك يحتويان على كثير من المواد القديمة الصادرة عن المنابع الأولى. كذلك وُضِعَ تحت تصرفه كتاب السيرة المحمدية الشهير، الذي لم يكن قد طُبِعَ بعد، «سيرة ابن هشام» (وقد نهض بنشر سيرة ابن هشام المستشرق فرديناند فوستنفيلد بين عام ١٨٥٨م وعام ١٨٦٠م، وفي عام ١٩٦٤م نشر فايل نفسه ترجمة كاملة لها). أما كتابه «مدخل إلى القرآن» فقد قسَّم فيه السور المكية لأول مرة إلى ثلاث مجموعات، تقسيمًا أخذ به نولدكه فيما بعد. وقد أَتْبَعَ فايل كتابه «محمد النبي» بعد ذلك بكتاب في ثلاثة مجلدات هو «تاريخ الخلفاء»، أكمله بـ «تاريخ الخلافة العباسية في مصر». وفي هذه المصنفات كذلك استخدم المصادر الأولى بعد تمحيص مادتها وتقديرها قدرها على نحو استقلالي.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى مؤلَّف هام هو كتاب تاريخي مثير للجدل بطبيعته، اسمه «حياة محمد وتعاليمه حسب مصادر لم تُستخدم غالبيتها إلى الآن»، من تأليف ألويس شبرنجر (١٨١٣–١٨٩٣م)، ظهر في ثلاثة مجلدات من عام ١٨٦١م إلى ١٨٦٥م في برلين، ثم أُعيدَ طبعه عام ١٨٦٩م. (وكان الجزء الأول من الكتاب قد ظهر بالإنجليزية في الله آباد بالهند). كان ألويس شبرنجر من منطقة التيرول أصلًا، وكان رجلًا نشيط الفكر، بعيد الترحال، لا يكِلُّ في الإنتاج ولا يمَلُّ، وأُوتي حظًّا عظيمًا مكَّنه من تنفيذ برنامج للعمل

خطه لنفسه في شبابه، نصَّ على تكريس نفسه للدراسات الآسيوية كليةً، وزيارة الشرق والإسهام في إدخال الثقافة الأوروبية هناك، والعودة إلى أوروبا بمعرفة صحيحة بالشرق وآدابه. وظل مدة تزيد على ١٢ عامًا مقيمًا بالهند عاملًا في ميادين التعليم والمكتبات والثقافة العامة، وانتهز الفرصة فوسع اطلاعه في الثقافة الإسلامية المدوَّنة، وعرَف ما كُتِبَ عن التاريخ العربي الإسلامي والتاريخ الهندي الإسلامي، فدفع ما دفع إلى المطبعة وجمع لنفسه ما استطاع إلى جمعه سبيلًا. وهكذا خرجَتْ بإشارة منه طبعة «فهرست كتب الشيعة» للطوسي، وطبعة «الإتقان» للسيوطي، في سلسلة «المكتبة الهندية» Bibliotheca Indica. كذلك كانت له يد في إخراج «ف. ن. ليس» لطبعة كشاف الزمخشري، وفي إخراج «أ. فون كريمر» لطبعة (عبارة عن مقتطفات) من كتاب المغازي للواقدي. وقد اكتسب شبرنجر علمًا واسعًا غير مألوف في عصره بأعمال أدب العصر الإسلامي المبكر، وكان يمتلك مخطوطات من سيرة ابن هشام وتفسيرها السواحيلي، ومن أجزاء من حوليات الطبري، وقد عثر على الجزء الأول من كتاب الطبقات لابن سعد في مكتبة خاصة في كاونبور، وعثر على أجزاء أخرى من الكتاب في دمشق. وكان على الأقل يعرف موطأ مالك، والصحيحين للبخاري ومسلم، ومجموعات الحديث الأربع المشهورة الأخرى، واستيعاب ابن عبد البر، وإصابة ابن حجر، وتاريخ ابن الأثير. ولما عاد شبرنجر عام ١٨٥٦م نهائيًّا إلى أوروبا، أحضر معه مجموعة من الكتب تقرب من ٢٠٠٠ مجلد، بينها ١١٠٠ مخطوط عربي، انتقلت ملكيتها بعد ذلك بقليل إلى مكتبة برلين. (وتقوم مكتبة جامعة توبنجن منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بالإشراف عليها والعناية بها، وباب الاطلاع عليها مفتوح للطالبين والراغبين).

وكان المتوقع أن يتمكن شبرنجر، بما بين يديه من مصادر كثيرة كثرةً كبيرة، من كتابة سيرة لمحمد لا تدع مجالًا للنقد أو المؤاخذة، ولكن السيرة التي ألفها خيَّبت الظنون في أكثر من ناحية، ولم ترْعَ شروط التقرير العلمي ومتطلباته. فقد ضلله اتجاهه إلى النظر إلى الإسلام باعتباره وليد روح عصره، وحمله على التقليل من شأن شخصية النبي ومن أهمية جهوده التاريخية. واستنتج من تقرير هو في ذاته تقرير صحيح، خلاصته أن الأخبار التي وصلتنا عن النبي محمد مصدرها رجال كانوا يبجلونه، استنتج من ذلك أنَّ «على كاتب السيرة أن يلعب دور محامي الخصم البغيض، وأن يستخرج مثالب شخصيته من بين المديح الذي يحيط بها». وانتهز كل فرصة ليلفت النظر إلى نواحي الضعف الإنسانية في محمد. ولكن سيرة شبرنجر رغم ما فيها من ألوان النقص هذه، تُعتبر جهدًا مهمًّا، لا لأنها

أثَّرت على الصورة التي ظل الناس في البيئات المثقفة في ألمانيا عشرات السنين يكونونها عن الإسلام فحسب، ولكن لأنها تمثل أيضًا محاولة ناجحة — على الأقل من الناحية الشكلية — لصب معلومات مفصلة مستقاة مباشرة من المنابع في قالبٍ جامعٍ ضخم، ولتقديمها إلى جمهور واسع من القراء. كذلك كان مهتمًّا بتتبع الأثر العظيم الذي كان للظروف الثقافية النابعة من الإسلام على أوروبا في العصر الوسيط، وكان حريصًا على فتح أعين مجتمعه عليه وتنبيهه إليه. وكان يرى أن الناس «أفردوا لمعرفة الثقافة الكلاسيكية القديمة اهتمامًا كبيرًا جدًّا ولمعرفة الشرق اهتمامًا صغيرًا جدًّا». وكان علاوة على ذلك يريد «تحت تأثير فلسفة عقلية للتاريخ أن يتبيَّن قوانين تاريخية عامة وأن يفرق بين العوامل الثابتة والعوامل المتغيرة في التاريخ»، وكان يعلن فخورًا أنه بالسعي إلى هذا الهدف ينضم إلى مدرسة ابن خلدون.

ألفرد فون كريمر وتيودور نولدكه ويوليوس فيلهاوزن

إذا كان لنا أن نقول عن شبرنجر إنه تأمل في الإسلام من أوجه نظر تاريخ الثقافة خاصة، فإن هذا القول ينطبق بالأحرى على مواطنه النمساوي ألفرد فون كريمر (١٨٢٨–١٨٨٩م). قام ألفرد كريمر، خلال عمله في السلك القنصلي وخلال الاستعداد له، برحلات كثيرة إلى تركيا وسوريا ومصر وعرَف الشرق هو أيضًا معرفة دقيقة عن رؤية بالعين. ويبدو أن الخبرة العملية بالشرق أيقظت في نَفْسَي شبرنجر وكريمر الحاجة إلى تتبع جهود الثقافة الإسلامية في العصر الوسيط التي ما زالت موجودة في الشرق المعاصر مضمحلة حقًّا، ولكن واضحة أمام النظرة المتعرفة، في كثير من جوانبها، وإلى كشف خطوط الصلة التي تؤدي إلى عالم الغرب. يذكر ألفرد فون كريمر عن نفسه أنه تعلم كيف يفهم «أن الإسلام في العصر الحاضر لا يمكن الحكم عليه حكمًا صائبًا إلا إذا رُبِطَ بمجموع التاريخ الثقافي للشعب العربي، ذلك التاريخ الثقافي الذي نرى آخر صورة من صور تطوره في الشرق الحديث». ولم يرد «البقاء في الدائرة الضيقة للثقافة العربية حتى لا يأخذ طائفة من الأفكار والتطورات على أنها عامة شاملة، وهي في حقيقتها مقصورة على جزء صغير من الإنسانية». فقد برز في وجدانه في أثناء دراساته الاقتناع المُلح بأن «هناك في الإسلام كذلك آراء مسيطرة يمكن التعرُّف عليها بكل تأكيد، أثرت على تاريخ الأمم تأثيرًا هائلًا».

وظهرت العيِّنة الأولى من حصيلة اشتغال كريمر بالمسائل المتصلة بتاريخ الثقافة وعلم الاجتماع في عام ١٨٥٩م، متمثلة في دراسة مستفيضة عن «ابن خلدون وتاريخه الثقافي

للدول الإسلامية». وتوالت كذلك في الأعوام ١٨٦٨م و١٨٧٥م و١٨٧٧م أعماله الرئيسة في تاريخ الثقافة: «تاريخ الأفكار السائدة في الإسلام. مفهوم الله، النبوة، فكرة الدولة»، ثم كتاب «تاريخ ثقافة الشرق تحت حكم الخلفاء» في مجلدين. وقد وجه البعض إلى «تاريخ الأفكار السائدة» نقدًا يتلخص في أنه أسرف في تضييق إطار النظرة الشاملة لتطوُّر الثقافة الإسلامية في مجموعها، وفي أنه معيب من ناحية الخطة. ولكن الكتاب في مجموعه يُعَدُّ جهدًا عظيمًا، ويعج بالملاحظات الهامة والأحكام الصائبة على أشكال التنظيم في الدولة وعلى تطوُّر الدين الإسلامي، والتصوُّف الإسلامي الذي لا يغفله، بل يوليه ما يستحق من التكريم. ويتم استعراض هذه الأمور كلها من مرصد الحاضر، لهذا تلُوح بعض مراحل التطور القديمة أحيانًا مسرفة في القِصر إذا ما أحاطت بها نظرة شاملة. ويعالج الجزء الأول من كتاب «تاريخ ثقافة الشرق تحت حكم الخلفاء» نُظم الدولة تحت العناوين الآتية: نشأة الخلافة، حياة المدينة، نظام الدولة في العصر القبلي، دمشق وبلاط الأمويين، توطيد كيان الدولة، الحرب، المالية، البنيان العضوي للدولة، القضاء. أما الجزء الثاني فيضم الفصول الثقافية الآتية: مدينة السلام (بغداد)، الزواج والأسرة، الشعب، الطبقات وحياتها، الخلق الشعبي، التجارة والحرف، الشعر، العلم والأدب، أسباب التدهور. والكتاب مكتوب بطريقة سلسة، ويضم كثيرًا من النصوص المستمدة من المصادر المناسبة والتي تجعل القراءة مسلية حقًّا.

يأتي تيودور نولدكه (١٨٣٦–١٩٣٠م) في هذا الموضع حسب الترتيب الزمني. لم يكن لنولدكه ما لرجالٍ غيره مثل شبرنجر وكريمر من موهبة التأمل الفلسفي، بل كان يهتم أول ما يهتم بفهم الوقائع وتحليلها، وقد ذكر عن نفسه أنه يتْبَع المدرسة العقلية، ويصح أن نقول عنه: إنه كان يتبع الوضعية. وهو في كل نشرياته يعالج الأمور كلها على نحو موضوعي خالص يلتزمه أشد الالتزام، ويعبر عما يريد بعبارات واضحة، وإذا حدَّث بشيء صدَق وأخلص. فإذا صادف أمرًا لم يكن متأكدًا منه، أبان عن ذلك، أو تركه كليةً دون أن يقول فيه رأيًا. فما ضل قط من انضوى لقيادته العلمية.

ونشرياته الكثيرة لا تمس تاريخ الإسلام إلا في جزء قليل منها هو الذي يعنينا هنا. فقد اضطلع بالجزء الخاص بالساسانيين عند إخراج طبعة لِيدن النَّموذجية لتاريخ الطبري، وكان الوحيد بين المشتركين في هذا العمل الجماعي العظيم الذي أتبع جزأه بترجمة ألمانية هي «تاريخ الفرس والعرب في عصر الساسانيين» (عام ١٨٧٩م) كذلك نشر في الكتاب

الجامع المسمى «صور شرقية» (١٨٩٢م) مقالتين: واحدة عن الخليفة المنصور، والأخرى عن ثورة العبيد في السنوات من ٨٦٩م إلى ٨٨٣م. أما كتابه الصغير «حياة محمد، عرض مبسط لها مستمد من المصادر» (١٨٦٣م) فيتميَّز بحكم موضوعي هادئ على شخصية النبي العربي، تلك الشخصية التي تلوح، للمتبعِ مذهبَ العقلية، ذاتَ ألغاز على نحو خاص. ويتميَّز، علاوة على ذلك، بأنه مثَل نَموذجي لما ينبغي أن يكون عليه عرضٌ تاريخي علمي معتمِد على المصادر، وفي متناول فهم عامة القراء. على أن أهم كتاب لنولدكه في ميدان البحث في الدراسات الإسلامية هو بلا شكٍّ كتابه «تاريخ القرآن» الذي يدور حول موضوع كان قد نوَّه إليه في رسالة الدكتوراه، تلك التي حصل بها على جائزة، ثم تناوله مرة أخرى بنجاح لنيل جائزة أعلن عنها «مجمع الكتابات والآداب» في باريس. وفي عام ١٨٦٠م ظهر الكتاب في صيغته الألمانية، ثم ظهرت الطبعة الثانية منها وقد زِيدت إلى ثلاثة مجلدات في عام ١٩٠٩و ١٩١٩ و١٩٣٨م، ونهض بتعديل الجزأين الأولين المستشرق فريدرِش شفالي، فلما مات قام جوتهلف برجشترِيسَر بالعمل في الجزء الثالث، ولكنه مات قبل أن يفرغ منه، فأكمله أوتو برتسل وأخرجه «تاريخ نص القرآن». وبهذا تم الكتاب. ولقد أصبح «تاريخ القرآن» منذ زمن طويل كتابًا أساسيًّا من كتب هذا الفرع من التخصص، ولا يحتاج لتبجيل أو تكريم أكثر من هذا. ولقد لقي تقسيم نولدكه (متأثرًا بجوستاف فايل) لسور القرآن زمنيًّا إلى ثلاث فترات مكية وفترة مدنية استحسانًا عامًّا. ولا تمس الشكوك التي أثارها ريشارد بل («مقدمة القرآن» ١٩٥٣م) ضد هذا التقسيم، بوصفه تقسيمًا. ويحدد الكتاب ميزات كل مجموعة من مجموعات السور من ناحية الأسلوب والمضمون تحديدًا ممتازًا. ويعطي المجلد الثاني من الكتاب كل ما يتطلبه الباحث من مؤلَّف علمي بهذا الحجم في موضوع جمع القرآن والمسائل المتصلة بذلك. وينطبق هذا الكلام أيضًا على المجلد الثالث الذي يعالج تاريخ النص القرآني. وعلى مَن يريد الاشتغال علميًّا بالقرآن على أي نحو، أن يعتمد كتاب نولدكه «تاريخ القرآن»، ذلك الكتاب الذي سيظل حافظًا لقيمته على مرِّ الأيام. ويكتمل هذا الكتاب بتكملة قيِّمة من إنشاء نولدكه هي دراسته: «في لغة القرآن» (التي نُشرت في مجموعة «مقالات جديدة في علم اللغات السامية» ١٩١٠م) التي تضم الأجزاء الآتية: «القرآن والعربية»، «خصائص أسلوبية وخصائص تكوين الجمل في لغة القرآن» و«كلمات أجنبية مستعملة عن عمد وغير عمد في القرآن».

أما يوليوس فيلهاوزن (١٨٤٤–١٩١٨م) فقد صنع لنفسه اسمًا في علوم التوراة بنقد لأسفار التوراة الخمسة، قبل أن يوجه اهتمامه التاريخي وجهده المثمر إلى عالم الإسلام

المبكر والعروبة القديمة. فنشر: «محمد في مدينة أو كتاب المغازي للواقدي في ترجمة ألمانية ملخصة» (١٨٨٢م) الذي عرَّف العلم المتخصص بكتاب هام لم يكن يعرفه إلا من طبعة أ. فون كريمر بقدر الثلث وعلى نحو معيب. ولا شك أن هذه الترجمة الألمانية الملخصة ستظل تُستعمل في المستقبل كثيرًا، حتى بعد أن يظهر النص الكامل قريبًا في طبعة محققة يصح الإسناد إليها. على أن طريقة فيلهاوزن المميِّزة له في العمل، والتي تربط ربطًا منسجمًا بين تحليل ونقد المصادر وبين التركيب التاريخي العظيم، لم تبدأ في الظهور إلا في الكتب التالية: «آثار من الجاهلية العربية» (١٨٨٧م، الطبعة الثانية ١٨٩٧م)، وفي الوقت نفسه إعادة بناء لكتاب الأصنام لابن الكلبي، ثم كتاب «المدينة قبل الإسلام»، و«تنظيم محمد للجماعة في المدينة»، و«كتب محمد والسفارات التي وجهت إليه» (١٨٨٩م)، و«مقدمة للتاريخ الإسلامي الأقدم» (١٨٨٩م). أما دراسته المقدَّمة لأكاديمية جوتنجن المسماة: «أحزاب المعارضة الدينية السياسية في عصور الإسلام القديمة» (١٩٠١م) فتظهر لنا فيها خاصة طائفة الخوارج، أولئك المتعصبين للديمقراطية الراديكالية المسرفة في عصور الإسلام المبكرة، حية أمام أعيننا، تثير الفزع فينا والإعجاب في وقت معًا، حتى يكاد الإنسان يقول: إن فيلهاوزن أدركهم ومال إلى صفهم، وما حديثه إلا استقاء من المصادر وإعادة بناء لمادتها بفهم حادٍّ صائب. وكتاب فيلهاوزن «الدولة العربية وسقوطها» (١٩٠٢م) كتاب هائل من الناحية العلمية ومن الناحية الفنية، وعمل يعتمد على تحليل نقدي للمصادر المتمثلة في الفقرات المطلوبة من تاريخ الطبري، وعرض للتاريخ السياسي للإسلام حتى سقوط الأسرة الأموية يأخذ بمجامع قلوب القراء. ولو اقتصر ما وصَلَنا من إنشائه على هذا الكتاب وحده، لحق علينا أن نعُده، من أجْلِهِ، أهم مؤرخ كتب عن تاريخ الإسلام إطلاقًا. كان فيلهاوزن، كما قال كارل هاينرش بيكر في ذكراه فأصاب: لا يتجه إلى المادة بالتساؤلات، ولكنه كان يدع التساؤلات تفرض نفسها من روح المصدر نفسه، وكان يفوق كل مَن سبقوه في أنه يرى المصدر بوصفه كلًّا متكاملًا، ولذلك وقف حيال المدونات الفنية عظيمًا رفيعًا. وكان في إحساسه بأنه ينبغي تجديد كل شيء من أساسه، لا يجد ضرورة ملحة في الإحاطة بكل شيء علمًا وفي مناقشته وتمحيصه. ومن البديهي أن فيلهاوزن لم يقُل في الأمور كلها الكلمة الأخيرة، وقد تعرَّض النقد الذي وجَّهه إلى تصوير أهل البلاد لطريقة فرض الضرائب، تعرض حديثًا للشك وبحق. ولكن «الدولة العربية وسقوطها» كتاب سيظل مع هذا — حتى إذا ظهرت به أخطاء أخرى من هذا القبيل — تحفةً رائعة.

استقلال علم الدراسات الإسلامية على يد مارتن هارتمَن وكارل هاينرش بيكر

يشعر المرء دائمًا في محاولته تقدير جهود الاستشراق الألماني منذ عهد تيودور نولدكه، بأن العلماء الألمان الذين عملوا في هذا الصعيد لم يكونوا قط مستقلين استقلالًا ذاتيًّا، وبأن أمرهم في هذا يشبه أمر أقرانهم من الأمم الأخرى. ذلك أن الاستشراق مسألة عالمية، مسألة تهم أوروبا بأسرها. لهذا كان من التعسُّف حيال الموضوع أن يظن المرء أن في إمكانه أن يعالج جهود الألمان على أنها مطلقة، وأن يفْصِلها عن ارتباطها بالأوشاج والأربطة العالمية. فإن جهود الألمان ليست في الحقيقة إلا سهمًا، مهما ارتفع الإنسان في تقديرها وعلا من ناحية الكيف. ونحن — معشر المستشرقين الألمان — نتْبَع بصفتنا هذه جماعة كبيرة، ونعلم أننا لا نقوم إلا بها. وإذا أخذنا في اعتبارنا أن مجال البحث الذي يفتحه الاستشراق مجال فسيح كثير الجوانب، تبيَّنَّا أن العاملين به فعلًا قليلون عددًا. وهذا وحده يكفي سببًا لكي يتجمعوا ويتعاونوا ويتجنبوا ازدواج العمل ما أمكن ذلك حسب ما يقضي به اقتصاد القُوى. وكثيرًا ما يكون للمستشرق الفرد بزملائه الأجانب علاقات أوثق من علاقاته بالمستشرقين من أهل بلده، ويعرف كيف يقدِّر شاكرًا ما يأتيه التبادل معهم من تشجيعٍ علمي ونفْع.

هذا ما ينبغي أن نفكر فيه عندما نتعرَّض فيما يلي لاثنين من المستشرقين من غير الألمان، هما: إجناتس جولدتسيهر، وكرستيان سنوك هورجرونيه، أثَّرَا في تطور الاستشراق الألماني تأثيرًا كبيرًا جدًّا، حتى إنه لا يمكن تصوُّر تاريخه بدونهما.

إجناتس جولدتسيهر (١٨٥٠–١٩٢١م) يهودي مجري درس في برلين ولايبتسج، وحصل على الدكتوراه في لايبتسج على يد فلايشر، ثم اتجه إلى الدراسات الإسلامية بمجالها الواسع الشامل، وخصَّ ببحوثه النقدية تاريخ الشريعة الإسلامية ونشأة الحديث وتطوره خاصة. في كتابه «الظاهريون، مذهبهم وتاريخهم» (١٨٨٤م) أنشأ مدخلًا إلى طريقة دراسة علم الشريعة الإسلامية معتمِدًا مثال مدرسة واحدة من مدارسها. والمجلد الأول من كتابه «دراسات إسلامية» (١٨٨٩–١٨٩٠م) يضم بحوثًا مختلفة تتصل بالعروبة وعلاقتها بالدين الإسلامي، والمجلد الثاني يضم بحثًا هامًّا عن تطوُّر الحديث، وبحثًا آخر عن تبجيل الأولياء في الإسلام. ويشك جولدتسيهر بأبحاثه النقدية في القيمة الخبرية الأولية للحديث أساسًا، ولكنه يرفع قيمته الخبرية الثانوية بوصفه شاهدًا على التطوُّر الديني والاجتماعي للإسلام في القرنين الأولين لوجوده بقدر تشككه الأول. وتعالج مجموعته «محاضرات عن الإسلام» (١٩١٠م، الطبعة الثانية ١٩٢٥م) الموضوعات الآتية: محمد والإسلام، تطور

القانون، النُّسُكية والصوفية، الطوائف، تشكيلات متأخرة. وينبغي أن نشير بعد هذا إلى إخراجه وإعداده لكتاب الغزالي «فضائح الباطنية» (١٩١٦م)، وإلى كتابه العظيم الأخير «اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين» (١٩٢٠م). هذه الكتب كلها تدخل في عداد المؤلفات التي لا غنى لمكتبة الدراسات الإسلامية عنها إلى اليوم.

وبينما كان جولدتسهير عالمًا نظريًّا بحتًا، وكان في أبحاثه يستند إلى ذاكرة فائقة، ويسير حسب مصادر مناسبة فحسب، متنقلًا من استشهاد إلى استشهاد، كان زميله في الاستشراق وصديقه العالم الهولندي كرستيان سنوك هورجرونيه، (١٨٥٧–١٩٣٦م) رجلًا يستند إلى خبرته العملية بالشرق، وقد قام في رسالته «العيد المكي» (١٨٨٠م) — تلك الرسالة التي لم تفقد قيمتها إلى اليوم — بفحص ناقد للتصريحات القرآنية الخاصة بإبراهيم واعتباره الأب الأول للإسلام ومنشئ الكعبة. وقد أقام كرستيان سنوك هورجرونيه — استعدادًا للعمل في خدمة الاستعمار — نصف عام متخفيًا، ١٨٨٥م، بين المسلمين في مكة، ووضع في كتابه «مكة» الذي أصدره باللغة الألمانية في جزأين (١٨٨٨–١٨٨٩م) النتائج العلمية لمهمته الفريدة تلك. وشغل بعد ذلك مناصب قيادية في السلطة الاستعمارية الهولندية الهندية، وأوتي بذلك، فيما أوتي، فرصة معرفة العرف السائر بين المسلمين هناك معرفة وثيقة. وتتضمن مقالاته «الصغيرة» — التي تعالج موضوعات متنوعة، من بينها ما يتخذ شكل مناقشات نقدية للكتب — مادة قيِّمة في الدراسات الإسلامية، وقد نُشرت هذه المقالات الصغيرة بعناية أ. ي. فِنسِنك ١٩٢٣–١٩٢٧م في ستة ثم سبعة مجلدات. ولسنوك هورجرونيه مقال واراه النسيان وإن ظل جديرًا بالاهتمام، مقال عن الإسلام اشترك به في الطبعة الرابعة من كتاب شانتيبي دي لاسوسي المسمى «كتاب تعليم تاريخ الأديان» (١٩٢٥م)، وكان كرستيان سنوك هورجرونيه متضلعًا من الفقه خاصة، ويجيد تاريخ الشريعة وتاريخ القانون الوضعي جميعًا، وكان نقده الذي كثيرًا ما اتسم بالحدَّة نقدًا مثمرًا دائمًا.

تقدَّمت الدراسات الإسلامية في طريق تحولها إلى علم مستقل في الصعيد الناطق بالألمانية تقدمًا كبيرًا بفضل جولدتسيهر، وسنوك هورجرونيه من ناحية وبفضل مبادرة ذاتية من ناحية ثانية. وقد أدى حصول الرايخ الألماني، في عامي ١٨٨٥–١٨٨٦م، على مستعمرات في أفريقيا تضم مناطق بعض سكانها من المسلمين (كانت ألمانيا منذ ذلك الوقت وحتى عام ١٩١٨م تُعَدُّ من الدول المستعمِرة) إلى إمداد الاشتغال بالإسلام وبالكتب الإسلامية المدوَّنة بالعربية بحافز معيَّن في ذلك الوقت، فتأسس طبقًا لهذه النظرة معهد

اللغات الشرقية في برلين عام ١٨٨٧م، وهو معهد كانت مهمته تتلخص في الحصول على معلومات عن البلدان الشرقية الحالية وبلدان الشرق الأقصى، وعن شعوب هذه البلدان وثقافاتها. وقد نشر المعهد في «أخباره» على مرِّ السنين والأعوام أعمالًا هامة خاصة بالدراسات الإسلامية. نشر إدوارد زاخاو (١٨٤٥–١٩٣٠م) الذي قام في عامي ١٨٧٩–١٨٨٠م برحلة بحثية إلى سوريا والجزيرة، وفي عامي ١٨٩٧-١٨٩٨م برحلة إلى العراق، وكان يشغل منذ عام ١٨٧٦م كرسي الأستاذية بجامعة برلين، نشر بصفته المدير الأول للمعهد: «الشرع الإسلامي حسب المذهب الشافعي» (١٨٩٧م) ضمن سلسلة الكتب التعليمية التي أصدرها. أما مارتن هارتمَن (١٨٥١–١٩١٨م، ولا ينبغي الخلط بينه وبين ريشارد هارتمَن) الذي كان يقوم بتدريس اللغة العربية في هذا المعهد، فقد بذل جهودًا لإنشاء كرسي أستاذية خاص بالدراسات الإسلامية فلم يُوفَّق؛ لأن الوقت لم يكن قد بلغ النضج الكافي لتقبل مثل هذه الدعوة. كذلك لم يجد مارتن هارتمَن لاتجاهه الاجتماعي في البحث من الاهتمام إلا أقله. والسبب يكمن في شخصيته المتهوِّرة المتفاوتة التي كانت تضلله في كتاباته وتدفعه إلى التعجل في اتخاذ رأي على الفور، دون تأنٍّ وانتظار على الأفكار حتى تنضج بالفعل وتطرح ثمارها في أوانها. ولكنه مع هذا يحتفظ بفضل الاهتمام بالاشتغال العلمي بالعالم الإسلامي المعاصر والتأكيد على هذا الاهتمام، ولا شك أنه كان يضعه نصب عينيه عندما أنشأ، بالاشتراك مع مجموعة من المتفقين معه في الفكر، الجمعية الألمانية للدراسات الإسلامية عام ١٩١٢م. وقد نشر العديد من المقالات في مجلة «عالم الإسلام» التي كان جيورج كامفماير (١٨٦٤–١٩٣٦م) يخرجها لهذه الجمعية. وقد أسهمت هذه المَجلة، التي تسمَّت منذ عام ١٩٥٩م باسم «سلسلة جديد»، في تزويد الرأي العام المتخصص والرأي العام الواسع بكمية كبيرة من المعلومات القيمة طوال عشرات السنين، أما كتاب مارتن هارتمَن الأخير، والذي نُشِرَ بعد وفاته في نشريات الجمعية الألمانية للدراسات الإسلامية، فقد كان يدور حول شعراء تركيا الجديدة.

ويسوقنا الحديث إلى كارل هاينرش بيكر (١٨٧٦–١٩٣٣م) الذي اختير مرة لمنصب وزير الثقافة البروسي، وكان أول مَن شغل كرسي أستاذية تاريخ ثقافة الشرق، الذي أنشئ عام ١٩٠٨م في هامبورج عند إنشاء المعهد الاستعماري هناك. كان بيكر بما تلقى من ثقافة عالِمًا في الدراسات السامية والآشورية أصلًا، ولكنه تحول، متأثرًا بكتابات فيلهاوزن وجولدتسيهر وسنوك هورجرونيه، إلى البحوث الإسلامية. على أن اهتمامه الأول كان قبل كل شيء آخر يتركز على ميدان تاريخ الثقافة والدين. ولكن هذا لم يمنع من قيامه ببحوث

تناول فيها المسائل الاقتصادية التاريخية. كتب فصلًا عن «توسع العرب» في «تاريخ كمبردج للعصر الوسيط». والحق أن كارل هاينرش بيكر كان يمكن أن يكون أي شيء آخر إلا أن يكون مهتمًّا بناحية واحدة فقط من الأمور. كان حتى إذا قام بدراسة جزء، لا يبعد نظره عن الكل. وقد جمع بنفسه كتاباته في كتاب من جزأين اسمه: «دراسات إسلامية» وعنوانه الثاني: «في كيان وتطور العالم الإسلامي» (١٩٢٤–١٩٣٢م)، ويتناول فيه موضوعات تبيِّن عناوينها طريقته في التفكير مثل: «الإسلام في إطار تاريخ الثقافة العام»، «الإسلام والاقتصاد»، «المسيحية والإسلام»، ومثل: «الخطوط الأساسية للتطور الاقتصادي بمصر في القرون الأولى للإسلام»، «نشأة أرض العشر والخراج في مصر»، «الحكر والإقطاع»، «في تاريخ الثقافة الإسلامية»، «الجدل المسيحي وتكون العقائد في الإسلام». والمقالات المجمعة في المجلد الثاني تتناول تارة «الإسلام في أفريقيا» (مثلًا: «الإسلام واستعمار أفريقيا»)، وتارة «مشكلات الشرق المعاصر» («الجامعة الإسلامية»، «فكرة الدولة التركية»، «مشكلة الثقافة التركية» وما إلى ذلك). ويرجع إلى بيكر فضل إنشاء المعهد الهامبورجي لتاريخ الشرق وثقافته، ويرجع إليه أيضًا فضل تأسيس مجلة «الإسلام» (١٩١٠م) خاصة، تلك المجلة — «مجلة تاريخ الشرق الإسلامي وثقافته» — التي بلغت أعدادها الآن ٤١ مجلدًا، والتي تعتبر أهم أداة نشرية للدراسات الإسلامية في ألمانيا والتي احتفظت على يد مَن خلفوا بيكر على كرسي الاستشراق في هامبورج بمستواها القديم.

المرحلة التالية لتطور الدراسات الإسلامية حتى العقد الرابع من القرن العشرين

ملاحظة تمهيدية

ليس من المألوف في عرض للتطور التاريخي لعلم من العلوم أن يصل إلى الحاضر ويشمله، على أية حال صَرَفَ زميلي في التخصص الأستاذ الهالي يوهان فوك (ولد عام ١٨٩٤م)، في كتابه العظيم الذي صدر عام ١٩٥٥م «الدراسات العربية في أوروبا»[١] نظره عن ذلك، ووقف بتاريخه عند مشارف القرن العشرين، فلم ينوِّه إلى المتخصصين في الدراسات العربية الذين كانوا أحياء أيام تأليفه الكتاب، مثل كارل بروكلمَن. وفوك له في هذا التحديد أسبابه الوجيهة، فالمرء لا يحب أن ينصِّب من نفسه خبيرًا يقيِّم زملاءه، خاصة وأنه مهما أحسن النية لن يُصدِر عن أي منهم حكمًا عادلًا العدل المطلق.

ولكني أود أن أخرج فيما يلي على هذه العادة؛ لأن حديثي يدور حول الوضع الراهن للاستشراق الألماني، أو على الأقل يتخذه له هدفًا. ولهذا بات من الضروري أن يتناول اتجاهات ومنجزات المستشرقين الذين على قيد الحياة الآن. وليست المهمة بطبيعة الحال مهمةَ إصدار أحكامٍ قيمية أو مهمةَ عقدِ امتحانٍ وتقديرِ درجات، بل المهمة تقتصر على

---

[١] يسرني أن أقرر في هذا المقام أنني في عرضي لتاريخ الاستشراق الألماني منذ نولدكه إلى هذا الجزء قد استعملت كتاب فوك كثيرًا، وأنني اتَّبَعْته أحيانًا حتى في التعبير اتباعًا وثيقًا، دون إشارة إلى ذلك تفصيلًا. وآمُل ألَّا يأخذ عليَّ مؤلفُ الكتاب هذا. كذلك تعلمت وأخذت الكثير من كتاب جوستاف بفانموللر «موجز في المدوَّنات الإسلامية» الصادر في عام ١٩٢٣م. (المؤلف)

سعينا إلى التعريف الموضوعي ما استطعنا إلى الموضوعية سبيلًا بمختلف النشريات التي شهدها ميدان الاستشراق.

وهناك صعوبة لا بدَّ من أخذها على علَّاتها، هذه الصعوبة تتلخص في أنني لن أستطيع الإشارة إلى العاملين في صعيد الاستشراق جميعًا بما يُحِق جهودهم ومنجزاتهم حقَّها، وفي أنني في أغلب الأحوال سأقتصر على تنبيهات قصيرة قلَّت سطحيتها أو عظُمت، وسأُغفل أشياء إما عن جهلٍ بها أو ربما عن سهو. لهذا أرجو زملائي جميعًا الذين سيطلعون على محاولتي هذه بعد تمامها، ويجدون أنني أسأت فيها إليهم، أن يصدقوني في أنني كنت على الأقل حسن النية في حديثي عنهم. أما الشباب من الزملاء الذين يهمني تقديرهم قدر ما يهمني تقدير الشيوخ، والذين يحفِلون لأسباب بديهية بالمدح والتقدير، فأرجوهم أن يفكروا في أن عملهم العلمي يحمل قيمته في ذاته، وأن تقديره لا يتم بالضرورة في هذا الكتاب بالإشارة على هذا أو ذاك النحو أو بالسكوت عنه. ولقد كنت وأنا في بداية عهدي بالسلك الجامعي لا أنظر لا إلى يمين ولا إلى شمال، بل أختار الأعمال التي كنت أنا شخصيًّا أعتبرها صحيحة هامة. وعندي من التفاؤل ما يجعلني أوقن بأن كل مستشرق صاعد ينجز شيئًا بحق سيصيب النجاح في النهاية.

وثمة صعوبة أخرى تتصل بالتحديد الزمني «العقد الرابع» من القرن العشرين، فقد بدا لي محققًا للهدف أن أشير في تقريري هذا إلى الوقفة التي تعرض لها تطور الاستشراق الألماني نتيجة لقيام حكم النازية، وأن أنهي بعام ١٩٣٣م مرحلة، لأبدأ مرحلة أخرى. وليس معنى هذا رسم خط قاطع فاصل بين المرحلة قبل هذا العام والمرحلة بعده. فالمستشرقون الذين عبَروا هذا الوقت العصيب دون أن يلحق بهم أذى، وكانوا قبل ١٩٣٣م ينشطون في المهنة وفي النشر، سيتناولهم هذا الفصل أو الفصل التالي الذي ينتهي إلى أيامنا حسبَ كوْن مركز الثقل في نشاطهم العلمي يقع بعد ١٩٣٣م أو قبله، أو يتناولهم الفصلان جميعًا.

تاريخ الأدب العربي لبروكلمَن ودائرة المعارف الإسلامية

كتاب «تاريخ الأدب العربي» الهائل لكارل بروكلمَن (١٨٦٨–١٩٥٦م) هو في الحقيقة كتاب أساسي في الدراسات العربية. وهو لا يقتصر على الأدب العربي وفقه اللغة العربية بالمعنى الضيق، بل يشمل كل ما كُتِبَ باللغة العربية من المدونات الإسلامية، ويصبح بهذا عُدة دارس العلوم الإسلامية التي لا محيص له عنها. وقد ظهر الجزء الأساسي من الكتاب في مجلدين عام ١٨٩٨م وعام ١٩٠٢م، ثم جاءت في الأعوام ١٩٣٧ و١٩٣٨ و١٩٤٢م

المجلدات التكميلية الثلاثة الكبيرة. وظهر المجلدان الأول والثاني في عام ١٩٤٣ و١٩٤٩م في طبعة أخرى بعد تعديلهما ليتناسبا مع المجلدات التكميلية الثلاثة. والكتاب في مجموعه ليس تاريخًا للأدب بمعنى الكلمة، بل هو سجل للمصنفات العربية كلها سواء المخطوط منها والمطبوع، يكتمل بمعلومات عن حياة المؤلفين. ومادة الكتاب مرتبة زمنيًّا، ومقسمة إلى أربعة، ثم ستة، أجزاء؛ أولًا: الأدب القومي العربي من البداية إلى العصر الأموي. ثانيًا: الأدب الإسلامي باللغة العربية في العصر الكلاسيكي (من حوالي عام ٧٥٠ إلى حوالي ١٠٠٠م) والعصر الكلاسيكي المتأخر (من حوالي عام ١٠١٠ إلى حوالي عام ١٢٥٨م). ثالثًا: تدهور الأدب الإسلامي من حكم المغول إلى استيلاء السلطان سليم على مصر في عام ١٥١٧م. ومن ذلك التاريخ إلى الحملة النابليونية على مصر في عام ١٧٩٨م، يعالجه الجزء الثالث التكميلي. رابعًا: الأدب العربي الحديث فيما يقرب من ٥٠٠ صفحة. وتعْقُب هذا ٦٠٠ صفحة تقريبًا تضم سجلًا للمؤلفين ولعناوين الكتب. وقد رُتِّبَ المؤلفون والمصنفات الواردة في الأجزاء الستة حسب المادة، وطبقًا لأوجه نظر جغرافية وتاريخية. وقد أنشأ كارل بروكلمَن هذا العمل الجدير بالإعجاب بمفرده، ولم يكن هذا الكتاب هو كتابه الوحيد، فقد وهب العلم المتخصص مجموعة بأسرها من المؤلفات الكبيرة ذات الفائدة الجمة. ومن الممكن أن نفهم أن البيانات التي تضمنها «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمَن بها هنَات في تفصيلاتها. ولكن مثل هذا العمل الضخم ما كان يمكن أن يخرج للوجود أبدًا إذا تحرَّى طريقة العمل الدقيقة البالغة الدقة، التي كانت تميز مستشرق توبنجن القديم، وناقد بروكلمَن الشديد كرستيان فريدرش زايبولد (١٨٥٩–١٩٢١م).

ومن البديهي أن تاريخ الأدب العربي لبروكلمَن في حاجة دائمة متجددة إلى الإكمال. وقد قام المؤلف نفسه بأول إكمال؛ إذ أضاف إلى كتابه ثلاثة مجلدات تكميلية تضم في مجموعها ٢٦٠٠ صفحة، بعد مرور ٤٠ إلى ٥٠ سنة من ظهوره. وقد مرَّت منذ ذلك الحين سنوات تزيد على العشرين، تكاملت فيها عناوين مصنفات كثيرة نتيجة لاكتشاف مخطوطات لم تكن معروفة، وظهرت فيها عناوين أخرى لم تكن موجودة من قبل، وصدرت من بعض المؤلفات طبعات أخرى لا بدَّ من الإشارة إليها. وقد قام المستشرق التركي المتخصص في الدراسات العربية فؤاد سزجين، وتلميذ هِلموت ريتر، الموجود حاليًّا في فرنكفورت، بالبحث المنظم في مجموعات المخطوطات العربية سنوات عديدة واكتشف آلافًا من المخطوطات، والمفروض أن تظهر نتيجة بحوثه في مجلدين باللغة الألمانية، يضافان بوصفهما ملحقين لكتاب بروكلمَن. هذا إلى أنه ظهرت في العام الماضي فكرة جميلة، مستقلة

عن ذلك، تدور حول إمكانية إعادة نشر الكتاب كله في صورة جديدة تمامًا تقوم على أساسٍ من التعاون العالمي، ولكنها للأسف، تأجلت مؤقتًا.

وهناك مَعين آخر في الدراسات الإسلامية لا يقل أهمية عن «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمَن، هو «دائرة المعارف الإسلامية». وتختلف دائرة المعارف الإسلامية عن كتاب بروكلمَن في أنها قامت من الأصل على أساس من التعاون العالمي، وأنها تمَّت على مرِّ السنين والأعوام. وقد اشترك في التخطيط لها اشتراكًا حاسمًا المستشرق سنوك هورجرونيه، وقام على التنفيذ خلَفُه على كرسي ليدن المستشرق أرنت يان فِنسِنك (١٨٨٢–١٩٣٩م)، واشترك لفيف من المستشرقين الألمان في كتابة عدد عظيم من المواد. واشترك في نشر الجزء الأول من الدائرة، الذي تم وظهر عام ١٩١٣م، من الجانب الألماني أرتور شاده (١٨٨٣–١٩٥٢م)، وريشارد هارتمَن (١٨٨١–١٩٦٥م). وفي الجزء الثاني الذي ظهر عام ١٩٢٧م هانس باور (١٨٧٨–١٩٣٧م)، ثم أرتور شاده وفيللي هيفننج (١٨٩٤–١٩٤٤م). واشترك فيللي هيفننج في مسئولية نشر الجزء الثالث والجزء الرابع والمجلد التكميلي، تلك المجلدات التي جرى العمل فيها في وقت واحد وخرجت في الأعوام ١٩٣٦ و١٩٣٧ و١٩٣٨م على التوالي. وأعد هيفننج سجلًّا عامًّا، ولكنه لم يُنشَر. وظهرت «دائرة المعارف الإسلامية» في المرة الأولى في ثلاث طبعات، طبعة ألمانية، وطبعة إنجليزية، وطبعة فرنسية. وكانت المقالات في غالبيتها بقلم المتخصصين في موضوعاتها، وكانت تترجم من لغتها الأصلية إلى اللغتين الأخريين. وقد بدآ بعد الحرب العالمية الثانية الإعداد لطبعة جديدة من دائرة المعارف يشترك فيها أيضًا لفيف من العلماء الألمان المتخصصين، وبدأت تظهر منذ عام ١٩٥٤م، للأسف في طبعتين فقط واحدة إنجليزية والأخرى فرنسية.

محمد والقرآن

تناولَتْ محمدًا والقرآن في المنطقة الألمانية في مائة العام الماضية أبحاثٌ وكتابات كثيرة، أشرنا فيما سبق منها إلى طبعة سيرة ابن هشام التي أخرجها فرديناند فوستنفلد (١٨٥٨–١٨٦٠م)، وإلى ترجمة جوستاف فايل لها (١٨٦٤م)، وأشرنا كذلك إلى طبعة تفسير البيضاوي التي أخرجها هاينرش ليبرشت فلايشر (١٨٤٦ و١٨٤٨م)، وإلى كتاب «تاريخ القرآن» لتيودور نولدكه (الطبعة الأولى عام ١٨٦٠م). وفي مطلع القرن العشرين خرج كتاب «طبقات ابن سعد» الذي يُعَد مصدرًا هامًّا للتاريخ الإسلامي المبكر بحافز من إدوارد زاخاو، وبتعاون من أويجين مينفخ، ويُوزِف هوروفيتس، وفريدرش شفاللي وآخرين. وقد اختصت

رسالتان من رسائل الدكتوراه تفسير السيرة المحمدية بالدرس: رسالة ب. برونله «مفسرو ابن إسحق وحواشيهم» (١٨٩٥م)، ورسالة أرتور شاده (١٨٨٣–١٩٥٢م) «تفسيرات السهيلي وأبي ذر لقصائد أُحُد في سيرة ابن هشام» (١٩٢٠م). وأنشأ هوبرت جريمه (١٨٦٤–١٩٤٢م) كتابًا من جزأين «محمد» تحدث فيه عن حياة النبي العربي وعمله، ولكن حكمه كان خاطئًا، فقد اعتبر محمدًا مصلحًا اشتراكيًّا أولًا وقبل كل شيء آخر. على أن عرضه المنظم للفقه الإسلامي القرآني في المجلد الثاني من الكتاب، عرض قيم لا نزال نجد فيه نفعًا. ويختلف كل ما كتبه يوزف هوروفيتس (١٨٧٤–١٩٣١م) عن محمد والقرآن والتاريخ الإسلامي المبكر اختلافًا بيِّنًا عن آراء «جريمه» المتطرفة أحيانًا، فهوروفيتس يزن الأمور بميزان النقد والحرص، ويكتسب بهذا ثقةً لكتاباته. وتحتوي «بحوثه القرآنية» على طائفة كبيرة من الملاحظات والمعلومات الصائبة. والجزء الأول منها يعالج النصوص القصصية في القرآن (ويقسِّم كلامه إلى: عموميات وشكليات، أساطير رادعة، قصص الأنبياء والصالحين، النبوة في القرآن)، ويعالج الجزء الثاني الأسماء الأعلام في القرآن. وقد نشر مقالًا بعنوان «الأسماء الأعلام اليهودية في القرآن، مشتقاتها» في مجلة كلية الاتحاد العبري، المجلد الثاني، (١٩٢٥م، وأعيد طبعه عام ١٩٦٤م)، يحتوي على إضافات هامة تكمل هذا الجزء الثاني من كتابه.

وقد عالج نفر من تلاميذ هوروفيتس في رسائلهم موضوعات قرآنية، وموضوعات تتصل بالتاريخ الإسلامي المبكر، أنشأ يوهان فوك (١٨٩٤م): «محمد بن إسحق – دراسات في تاريخ الأدب»، وهي رسالة فيها عيوب تتصل بالنقل من المخطوطات، ولكنها سليمة من ناحية المادة، ونشر يوزف س. ريفلين «القانون في القرآن والعبادات والشعائر» عام ١٩٣٤م، وقد أشار ريفلين في مقدمة بحثه إلى عملين: «يسوع في القرآن» نسبة إلى ل. بخمن، و«الصلاة في القرآن» نسبة إلى ف. جويتاين، وهما بحثان من بحوث مدرسة هوروفيتس، يبدو أنهما لم يطبعا.

ويجدر بنا في هذا الموضع أن نذكر كتابين عن النبي العربي يختلفان في وجهتهما عن كتاب آرنس،[٢] أنشأهما كاتبان مستشرقان إسكندنافيان، ولكنهما ظهرا في ترجمتين ألمانيتين جعلتا لهما جمهورًا كبيرًا من القراء الألمان، كتاب فرانتس بُول «حياة محمد»، ترجمة هانس هاينرش شيدر (١٩٣٠م)، وكتاب تور أندريه «محمد – حياته ودينه»

[٢] «محمد، صاحب دين» لكارل آرنس (١٩٣٥م).

(١٩٣٢م). هما كتابان على مستوى علمي رفيع ولا يعلو عليهما في بابهما كتاب آخر. ويتميَّز كتاب فرانتس بُول بموضوعيته الهادئة، وكتاب تور أندريه بمعالجة واعية للموضوعات الدينية السيكولوجية.

أما موضوع القرآن خاصة فقد عالجه في السنوات الأخيرة جوتهلف برجشتريسر (١٨٨٦–١٩٣٣م)، وتلميذه وخَلَفه أوتو برتسل (١٨٩٣–١٩٤١م). برجشتريسر حصل على الدكتوراه على يد أوجست فيشر بناء على رسالته «أدوات النفي والاستفهام وما إليها في القرآن» (١٩١٤م)، ونهض بعد وفاة فريدرش شفاللي باستكمال تعديل كتاب نولدكه «تاريخ النص القرآني»، وبإعادة كتابة الجزء الثالث من الكتاب على نحو جديد تمامًا، ومات قبل أن ينشره فنشره برتسل. وقد تناول في مقالات له نُشرت بالمجلات أو قُدِّمَت للمجامع موضوعات مثل: «قراءة الحسن البصري» (١٩٢٦م) قراءة القرآن في القاهرة (١٩٣٢ و١٩٣٣م)، والقراءات الشاذة في كتاب المحتسب لابن جني (١٩٣٣م). كذلك نشر طبعة كتاب ابن خالويه «مختصر شواذ القراءات» (١٩٣٤م)، و«طبقات القراء» لابن الجزري (١٩٣٥م، بفهارس من إعداد برتسل)، وقد تحدث برجشتريسر في منشورات مجمع العلوم البافاري عن «خطة لوضع هوامش نقدية للقرآن» (١٩٣٠م) تضم القراءات المختلفة، لا على أساس كتب القراءات، بل على أساس أقدم المخطوطات القرآنية. وقد تابع أوتو برتسل، بعد وفاة برجشتريسر، خطة الهوامش النقدية وتحدث عنها بالتفصيل فيما أسماه بـ «علم القراءات» بمجلة «إسلاميكا» في ذلك الوقت (١٩٣٤م). وجمعت المخطوطات القديمة التي أمكن الوصول إليها مصورة على أفلام نيجاتيف، جمعًا منظمًا في أرشيف، ولكن الأفلام التي جمعت ضاعت في الحرب العالمية الثانية، وصُرف النظر عن الموضوع.

التاريخ الثقافي والتاريخ السياسي

في الكتاب الذي أصدره فيلهلم أونكن بعنوان: «التاريخ العام في بحوث منفصلة» ظهر في عامي ١٨٨٥ و١٨٨٧م الجزآن المسميان «الإسلام في الشرق والغرب» تأليف أوجست موللر (١٨٤٨–١٨٩٢م)، واللذان يُعتبران حتى الآن المؤلَّف الشامل المفصل الوحيد الذي عالج التاريخ السياسي للإسلام. ولكن المطلع عليه يلاحظ عليه أنه كتاب أُلِّف وفاءً لطلب، فهناك أجزاء هامة تفتقر إلى الإعداد الأول والدراسة التمهيدية. وما كان يمكن لشخص واحد أن يدرس المادة الهائلة الدراسة الكافية ويقيِّمها ليكوِّن منها عرضًا تاريخيًّا شاملًا، وما كان للتأملات، مهما بلغت من طرافة الصياغة، أن تملأ ما بالكتاب من الفراغات. لهذا لقي

كتاب كارل بروكلمَن (١٨٦٨–١٩٥٦م) «تاريخ الشعوب والدول الإسلامية» عندما صدر عام ١٩٣٩م الترحيب من كل جهة (صدرت منه طبعة ثانية عام ١٩٤٣م)، ويصل كارل بروكلمَن في كتابه هذا إلى فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى فيشملها أيضًا، ولكنه عمومًا على حد اعتراف المؤلف نفسه «لا يزال من الأمور الشديدة المخاطرة اليوم أن يكتب الإنسان تاريخًا للشعوب والدول الإسلامية من البداية حتى العصر الحاضر؛ لأن المصادر اللازمة لعرضٍ من هذا النوع لم تُنشر بعدُ كلها، فضلًا عن معالجتها معالجة نقدية.» ويستعرض بروكلمَن كمية ضخمة هائلة من الوقائع مما يجعل القراءة متعبة مملة.

أما كتاب آدم ميتس (١٨٦٩–١٩١٧م) «عصر النهضة في الإسلام» — الذي نشره، بعد موت مؤلفه، هِرمَن رِكِندورف — فكتاب من نوع آخر يختلف عن نوع كتابَي أوجست موللر وكارل بروكلمَن، فهو عرض للثقافة الإسلامية في القرن العاشر الميلادي، يدَع فيه المؤلف المصادر نفسها تتحدث، ويعرف كيف يضم المعلومات التفصيلية الكثيرة التي يوردها بنظامٍ ويُصيغها في جُمل موجزة سائغة للقارئ، ويبدأ بالحديث عن «الدولة» و«الخلفاء» و«الأمراء» و«المسيحيين واليهود» و«الشيعة» و«الإدارة» و«الوزراء» و«المالية» ثم ينتقل إلى الحديث عن موضوعات أخرى تدل عليها عناوين الأبواب الآتية: «الأشراف»، «العبيد»، «العلماء»، «الفقه»، «القاضي»، «الأدب»، «الدين»، «الأخلاق»، «الرزق»، «المدن»، «الأعياد»، «إنتاج البضائع»، «الصناعة»، «التجارة»، «الملاحة النهرية»، «النقل البري»، «الملاحة البحرية». ولكن عنوان الكتاب لم يُختر اختيارًا موفقًا، والمقصود منه أن المجتمع الإسلامي في القرن العاشر أحدث نهضة في بعض العناصر الثقافية التي عُرفت في العصر قبل الإسلامي، وخاصة الهللينية منها.

وقد نشط في قطاع التاريخ مستشرق آخر هو «ريشارد هارتمَن» (١٨٨١–١٩٦٥م)، وتمثل نشاطه خاصة في مؤلفاته: «فلسطين تحت حكم العرب، ٦٣٢–١٥١٦م» (١٩١٥م)، «المقتطَفة التوبنجنية من تاريخ ابن طولون» (١٩٢٦م)، «في التاريخ الأول للخلافة العباسية الظاهرية بالقاهرة» (١٩٥٠م). وله تحليلان طريفان تعرَّض بهما لعالم الإسلام اليوم: «عالم الإسلام قديمًا وحديثًا» (١٩٢٧م) و«أزمة الإسلام» (١٩٢٨م). وينبغي أن نشير من بين مؤلفاته الأخرى إلى كتابه «دين الإسلام – مدخل» (١٩٤٤م) بصفة خاصة. وهناك في قطاع التاريخ أيضًا مؤلفات طريفة لجيورج ياكوب (١٨٦٢–١٩٣٧م) نشير إليها في هذا المقام، عالج فيها العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى: «التجارة الاسكندنافية البلطيقية للعرب في العصور الوسطى» (١٨٨٧م)، «عربي من القرن العاشر

يصف فولدا، وشلزفيج، وزوست، وباديبورن، ومدائن أخرى في الغرب» (الطبعة الثالثة ١٨٩٦م)، «تقارير عربية لمبعوثين إلى دواوين أمراء جرمان من القرنين التاسع والعاشر» (١٩٢٧م)، «تأثير الشرق على الغرب أثناء العصر الوسيط خاصة» (١٩٢٤م). أما فالتر بيوركمن (١٨٩٦م) فقد يسَّر استعمال صبح الأعشى للقلقشندي، ذلك الكتاب الضخم الذي يقع في ١٤ جزءًا، بملخص أعده باللغة الألمانية أسماه «فصول في تاريخ ديوان الإنشاء بمصر الإسلامية» (١٩٢٨م). واشترك باول كاله (١٨٧٥–١٩٦٤م)، وم. زوبرنهايم (١٨٧٢–١٩٣٣م)، ومحمد مصطفى في إخراج الأجزاء الأخيرة من تاريخ ابن إياس بين عامَي ١٩٣١ و١٩٤٥م، وهو كتاب مهم في تاريخ مصر في العصر الوسيط المتأخر (وزودته المستشرقة أنيماري شيمل بمجلد فهارس). ونشر إريش طوبف في عام ١٩٢٩م دراسة تفصيلية خاصة «تكوينات البلدان في الأجزاء العربية من تركيا منذ الحرب العالمية، طبقًا لنشأتها وأهميتها وقدرتها على الحياة».

وفي ميدان التاريخ التركي العثماني صنع فرانتس بابينجر (١٨٩١م) له اسمًا، وهو عالم متضلع من مادته، بنشرياته العديدة التي أهمها الكتابان المهمان المفصلان: «مؤرخو العثمانيين وأعمالهم» (١٩٢٧م) وهو كتاب أساسي في هذا الميدان، و«محمد الفاتح وعصره» (١٩٥٣م). ومن بين مقالاته القصيرة مقال مفيد جدًّا نُشِرَ ببعض المجلات هو «الإسلام في آسيا الصغرى» (١٩٢٢م). أما كتابا رودولف تشودي (١٨٨٤–١٩٦٠م) «الخلافة» (١٩٢٦م) و«الدولة العثمانية القديمة» (١٩٢٦م) فيستحقان التنويه رغم تواضع حجميها. ولا يتسع المقام للإشارة إلى النشريات الكثيرة التي ظهرت في العشرينيات والثلاثينيات عن تاريخ تركيا الحديثة.

أصول الدين – تاريخ العقيدة – تاريخ الفرق – تدين وتصوف

المؤلفات التي أخرجتها المطابع في السنوات الماضية خاصة بالحياة الدينية، التي هي الميدان الأوسط لظاهرة الإسلام، كثيرةٌ كثرةً لا يمكن معها الحديث إلا عن طائفة من بينها فقط.

ظهرت مجموعات من النصوص الدينية المستقاة من المصادر مترجمة إلى اللغة الألمانية، منها كتاب يوزف هيل (١٨٧٥–١٩٥٠م) المسمى «من محمد إلى الغزالي» (١٩٢٣م) وكتاب يوزف شاخت (١٩٠٢م) «الإسلام والقرآن» (١٩٣١م) الذي ظهر ضمن الطبعة الثانية للمطالعة في تاريخ الأديان التي نشرها ألفرد برتوليت. وقد ظهر حديثًا (١٩٦٢م) كتاب «عقائد الإسلام» من تأليف هِرْمَن شتيجليكر (١٨٨٥م) وهو عالم

نمساوي في اللاهوت، يتحدث فيما يزيد على ٨٠٠ صفحة عن أصول الدين الإسلامي الحنيف حديثًا يشمل أفرعه المتشعبة، وينتهج أسلوبًا مدرسيًّا منظمًا صرفًا، دون أن يتعرض للمادة من أوجه نظر تاريخية مما يسهل على القراء فهمها. وهناك من تأليف هِلموت رِيتر (١٨٩٢م) «دراسة في تاريخ التدين الإسلامي» تضم إشادة مفصلة بالحسن البصري (١٩٣٣م)، وكتاب الغزالي «كيمياء السعادة. مترجم من مختارات عن المصادر الفارسية والعربية» (١٩٢٣م) الذي يُعتبر مدخلًا ممتازًا إلى أعمال الفقه الإسلامي العظيم. وقد أخرج هانس باور (١٨٧٨–١٩٣٧م) أجزاءً من مصنف الغزالي «إحياء علوم الدين» مترجمة إلى الألمانية ومشروحة، وهي: الكتاب الثاني وأسماه: «قواعد العقائد عند الغزالي» (١٩١٢م)، والكتاب السابع والثلاثون وأسماه: «النية والإخلاص والصدق» (١٩١٦م)، والكتاب الثاني عشر «النكاح» (١٩١٧م)، والكتاب الرابع عشر «الحلال والحرام» (١٩٢٢م). وقام تلميذه وخَلَفه هانس فير (١٩٠٩م) بمتابعة السلسلة فأخرج ترجمة وشرحًا للكتاب الخامس والثلاثين من مؤلَّف الغزالي باسم: «كتاب الغزالي في الثقة بالله» (١٩٤٠م). وهناك كتاب في مجلدين من تأليف ماكس هورتن (١٨٧٤–١٩٤٥م) عن «عالم الأفكار الدينية لدى المسلمين المثقفين في الوقت الحاضر» (١٩١٦م) و«عالم الأفكار الدينية لدى عامة المسلمين في الوقت الحاضر» (١٩١٧م).

وقد أخرج المستشرق هِلموت رِيتر، الذي نوهنا إليه من قبل، كتابًا هامًّا عن تاريخ الفرق الإسلامية. وهِلموت ريتر واحد من أهم القائمين بالدراسات الإسلامية ومن أوفرهم إنتاجًا. أما كتابه الذي نعنيه فهو طبعة «مقالات الإسلاميين» للأشعري (ظهر في جزأين عامي ١٩٢٩ و١٩٣٠م ومعه فهارس، وهي المجلدات رقم ١ «أ» و١ «ب» و١ «ج»، من سلسلة المكتبة الإسلامية — البيبليوتيكا إسلاميكا — التي يخرجها هـ. رِيتر بتكليف من الجمعية الشرقية الألمانية). وقد أمكن بفضل الاستناد إلى التقرير الموضوعي للأشعري تتبع خطوط تطور تاريخ العقيدة الإسلامية في العصر المبكر تتبعًا تفصيليًّا. كذلك أخرج رِيتر كتاب «فرق الشيعة» للحسن بن موسى النُّوبَختي أو على الأصح لأبي القاسم سعد بن عبد الله الأشعري القُمِّي (المجلد رقم ٤ من المكتبة الإسلامية، ١٩٣١م). أما رودولف شتروتمَن (١٨٧٧–١٩٦٠م) فقد تعمق في دراسة الفرق الإسلامية خاصة إلى أبعد حد، وخص بمقاليه الأولين الرائعين فرقة الزيديين الموجودة باليمن للآن: «مدونات الزيديين» (١٩١٠-١٩١١م) «دستور الزيديين» و«شعائر الزيديين» (١٩١٢م). ثم أتبعهما سلسلة طويلة من الأبحاث ومن الطبعات، خاصة لنصوص من دائرة الشيعة الاثناعشَريين والسبعيين والنُّصَيريين

والفرق الأخرى، وتحليلات لها. نذكر منها «بيان مذهب الباطنية وبطلانه» من كتاب «قواعد عقائد آل محمد» لمحمد بن الحسن الديلمي (١٩٣٩م) و«نصوص العلم الرُّوحاني عند الإسماعيليين» (١٩٤٣م) و«مجموع الأعياد والدلالات عند النُّصَيريين لميمون بن القاسم الطبراني، كتاب أساسي في دراسة دولة العلويين السورية» (١٩٤٦م) و«تفسير إسماعيل للقرآن، الأجزاء من ١١ إلى ٢٠، مخطوط عربي أمبروزيانا هـ ٧٦» (١٩٥٥م) و«موضوعات باطنية فريدة عند النصيرية» (١٩٥٨م). وفي معرض حديثنا عن الكتب التي تعالج الفرق الإسلامية، ومن ثَمَّ، تعالج الخلاف الإسلامي الداخلي القائم، نشير إلى عمل يدور حول المدافعين المسلمين في العصر الوسيط، وحول موضوعات الخلاف والتشاحن بينهم وبين المسيحية، هو كتاب أردمن فريتش: «الإسلام والمسيحية في العصر الوسيط – دراسات في تاريخ التشاحن الإسلامي مع المسيحية باللغة العربية» (١٩٣٠م).

كان ألفرد فون كريمر، وإجناتس جولدتسهير، وسنوك هورجرونيه يعتبرون التصوُّف ضلعًا مهمًّا جوهريًّا في الإسلام، ثم جاء ريشارد هارتمَن (١٨٨١–١٩٦٥م) وأصدر دراسة خاصة عام ١٩١٤م «عرض القشيري للصوفية (الرسالة في علم التصوُّف)» بيَّن فيها الاتجاهات الفكرية لرجل يمثل صوفية معتدلة تتفق مع الإسلام الحنيف. ونشر جيورج روزِن كتابه «مثنوي الشيخ مولانا جلال الدين الرومي» (١٩١٣م) الذي قدَّم بنشره عيِّنات من العمل الشعري لواحد من الصوفيين الفارسيين البارزين. على أن أفضل دراسة للتصوُّف الإسلامي دراسة حاسمة ترجع إلى المستشرق الفرنسي الفذ، الذي كان يسترسل في التهويم أحيانًا، لُوِي ماسينيون (١٨٨٣–١٩٦٢م)، والذي أخرج كتبًا تُعتبر عُدة الطالب في الدراسات الإسلامية، حتى في الديار الألمانية، منها: «آلام الحسين بن المنصور الحلاج، شهيد التصوُّف الإسلامي، الذي أُعدِم في بغداد في ٢٦ مارس ٩٢٢م» (في مجلدين، ١٩٢٢م)، «دراسة في أصول المصطلحات الفنية للتصوُّف الإسلامي» (١٩٢٢م) و«مجموعة نصوص لم تُنشر من قبل خاصة بتاريخ التصوُّف في البلاد الإسلامية» (١٩٢٩م). ثم جاء ماكس هورتن (١٨٧٤–١٩٤٥م)، وكان قد أشار في عام ١٩١٠م في «مجلة الفلسفة العلمية وعلم الاجتماع» إلى وجود «أفكار هندية في الفلسفة الإسلامية»، وكتب في عام ١٩٢٨م في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية — تحت عنوان فيه مبالغة وتكبُّر هو: «فحص فيلولوجي لمحاولات ترجمة نصوص صوفية للحلاج» — مقالًا نقَد فيه نتائج أبحاث ماسينيون، واعتبر الحلاج نفسه مفكرًا من الطراز البرَهْماني. وتولَّد من هذه الاعتبارات تشاحن مؤسف ربما لم تُتَحْ

خلاله الفرصة دائمًا لفهم الأمور التي كان هورتن يقولها على الوجه الصحيح. ولريشارد هارتمَن رأي وسط، كأنه اتخذه قبل المعركة ليوفق بين اتجاهيها، نشره عام ١٩١٦م «في مسألة أصل الصوفية وبدايتها» يقول: إن عالم الأفكار والتصوُّرات الإسلامي ينبغي أن يُفهَم أولًا من خلال الإسلام نفسه، دون أن يعني هذا استبعاد التأثيرات الأجنبية المباشرة.

وأتى بعد جيورج روزن مستشرقون آخرون ترجموا في أعقابه عينات من القصائد الصوفية إلى الألمانية، منهم ماكس مايرهوف (١٨٧٤–١٩٤٥م) في «الصوفية الفارسية التركية» (١٩٢١م) وجيورج ياكوب (١٨٦٢–١٩٣٧م) في «الوحدة الصوفية – حنين وتحقق» (١٩٢٢م). وهِلموت رِيتر الذي ظهرت له في كتاب تكريم جيورج ياكوب (١٩٣٢م) ترجمة أدبية ممتازة للنشيد الأول من القصيدة التعليمية الصوفية العظيمة لجلال الدين الرومي، وفي كتاب تكريم رودولف تشودي (١٩٥٤م) «كلمات بايزيد البسطامي»، وفي مجلة «أُورينس» (١٩٥٢م) «الصوفية الإسلامية جدال مع الله». أما أهم عمل أنشأه رِيتر وأسهم به في دراسة الصوفية فهو كتابه العلمي الكبير «بحر الروح – الإنسان والدنيا والله في حكايات فريد الدين العطار» (١٩٥٥م)، ذلك الكتاب الذي يُعتبر بحقٍّ مَعينًا لا ينضب للأفكار الصوفية.

وهناك كتب ومقالات تعالج موضوع الطوائف الصوفية التي أخذت أهميتها تزداد تدريجيًّا في قلب العصر الوسيط والجزء المتأخر من العصر الوسيط، وموضوع الجماعات المشابهة لها، منها: بقلم هرمن تورننج «مقالات لفهم نظام الجمعيات الإسلامي على أساس بسط مداد التوفيق» (١٩١٣م) فيها تفصيلات دقيقة عن قبول المستجدين في طائفة من طوائف الدراويش، وبقلم باول كاله (١٨٧٥–١٩٦٤م) «في تنظيم طوائف الدراويش في مصر» (١٩١٦م)، وبقلم ريشارد هارتمَن «فتوة وملامة» (١٩١٨م)، وبقلم جيورج ياكوب (١٨٦٢–١٩٣٧م) «مقالات في فهم طائفة الدراويش البكتاشية» (١٩٠٨م) و«البكتاشية وعلاقتها بالظواهر المشابهة» (١٩٠٩م)، وبقلم ريشارد رويش «الإسلام في شرق أفريقيا مع مراعاة خاصة للجماعات الإسلامية السرية» (١٩٣٠م). وخص فرانتس تيشنر (١٨٨٨م) الفتوة، وهي تنظيم من الرجال يتابع أهدافًا إنسانية، بأبحاث مستفيضة وطبعات للنصوص، لا نستطيع أن نتعرَّض لها هنا بالتفصيل، ونكتفي بالإشارة إلى مقالتيه العامتين: «جماعات الفتوة الإسلامية – مشكلة نشأتها والخطوط الأساسية لتاريخها» (١٩٣٤م)، و«الفرسانية الإسلامية في وقت الحروب الصليبية» (١٩٣٨م).

الشريعة الإسلامية

رفع جولدتسيهر وسنوك هورجرونيه الفقه إلى درجة الموضوع الخاص الذي تبحثه الدراسات الإسلامية، وأدى هذا إلى نشاط في العالم المتخصص، بما فيه المنطقة الناطقة بالألمانية، وحركة نشر كبيرة. في عام ١٩١٠م ظهر «موجز الشرع الإسلامي على مذهب المدرسة الشافعية» في طبعة مجددة من طبعة ت. ف. يونبول الأساسية الأصلية بالهولندية عام ١٩٠٣م. أما الدراسات الألمانية الأصيلة التي كتبها مستشرقون ألمان فنذكر منها: «قانون الأجانب الإسلامي حتى الاتفاقات الإسلامية الإفرنجية – دراسة قانونية تاريخية في الفقه» (١٩٢٥م) و«في بناء المؤلفات الفقهية الإسلامية» (١٩٣٥م) لـ فيللي هيفننج (١٨٩٤–١٩٤٤م). «في تطبيق الشريعة الإسلامية في القرن السادس عشر – التفسيرات الشرعية لشيخ الإسلام أبي السعود» أخرجها وترجمها وبحثها «باول هورستر» (١٩٣٥م). أما يوزف شاخت (١٩٠٢م) الخبير الأول في ميدان الشريعة الإسلامية في الوقت الحاضر، فقد بدأ دراساته المنوعة للفقه بطبعة من «كتاب الحِيل والمخارج» للخصاف (١٩٢٣م) و«كتاب الحِيل في الفقه» للقزويني (١٩٢٤م)، ثم نشر في مجلة «الإسلام» (١٩٢٦م) عرضًا عامًّا لمدونات الحِيل الفقهية: «المدونات العربية عن الحيل – دراسة في تطبيق الشريعة الإسلامية». كذلك نشر شاخت مقالات عن الموضوعات الآتية: «مهام البحوث في الشريعة الإسلامية» (١٩٢٨م)، «شريعة وقانون في مصر الحديثة – دراسة في موضوع اتجاه التجديد الإسلامي» (١٩٣٢م)، «نظرة اجتماعية في الشريعة الإسلامية» (١٩٣٥م). وفي عام ١٩٣٣م نشر شاخت: «مقتطفات القسطنطينية من كتاب الاختلاف للطبري». كذلك اشتغل جوتهلف برجشتريسر (١٨٨٦–١٩٣٣م) بمسائل الشريعة الإسلامية اشتغال العالِم المتعمق، وعبر عن آرائه فيها بصفة أساسية في مقالتين هامتين نُشرتا ببعض المجلات: «بداية التفكير التشريعي في الإسلام ومميزاته» (١٩٢٥م) و«في منهج البحث في الفقه» (١٩٣١م). وأخرج شاخت من مخلفات برجشتريسر الذي مات مبكرًا، مخطوط محاضرات منظمة ألقاها في الفصل الدراسي الشتوي (١٩٢٨-١٩٢٩م) عن المميزات الأساسية للشريعة الإسلامية، ونشره باسم: «المميزات الأساسية للشريعة الإسلامية، بقلم جوتهلف برجشتريسر» (في سلسلة الكتب التعليمية لقسم اللغات الشرقية ببرلين، ٣٥، ١٩٣٥م). ويبدأ الكتاب بتقرير معبِّر مؤثر: «الشريعة الإسلامية بمعناها الواسع الذي يشمل تنظيم الشعائر كذلك، هي المضمون الحقيقي للروح الإسلامية الأصيلة، وهي التعبير الحاسم عن التفكير الإسلامي، إنها النواة الجوهرية للإسلام على الإطلاق.»

الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية والرياضة

لقيت الفلسفة الإسلامية منذ منتصف القرن التاسع عشر اهتمام المستشرق فريدرش ديتريتشي (١٨٢١–١٩٠٣م) الذي توفر عليها وأخرج ما يُسمى بـ «كتاب الربوبية لأرسطو» ومختارات من «رسائل إخوان الصفا»، و«الدولة النَّموذجية»، ورسائل أخرى للفارابي، وحاول أن يعرض «فلسفة العرب في القرن العاشر اعتمادًا على كتابات إخوان الصفا» (٨ مجلدات). وفي نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين كتب ل. شتاين «في ظهور الفلسفة الإغريقية لأول مرة بين العرب» (١٨٨٩م) و«استمرار الفلسفة الإغريقية والعالم الفكري عند العرب» (١٨٩٨م)، وكتب ي. بوللاك في «تطور الفلسفة العربية واليهودية في العصر الوسيط» (١٩٠٤م)، وكتب ز. هوروفيتس في «أثر الرواقية على تطور الفلسفة عند العرب» (١٩٠٣م) وفي موضوع «أثر الفلسفة الإغريقية على تطور الكلام» (١٩٠٩م). وتبعت هذه الدراسات محاولات لعرض تاريخ الفلسفة الإسلامية في مجموعها: «تاريخ الفلسفة في الإسلام» بقلم ت. ي. دي بور (١٩٠١م) ومن تأليف ماكس هورتن (١٨٧٤–١٩٤٥م) «النظريات الفلسفية للفقهاء المتأملين في الإسلام اعتمادًا على مصادر أصلية» (١٩١٢م) و«فلسفة الإسلام في علاقاتها بالنظريات الفلسفية بالجزء الغربي من الشرق» (١٩٢٤م)، كذلك قام هورتن بكتابة القسم الخاص بفلسفة الإسلام في الطبعة الحادية عشرة من كتاب «أوبرفيج» أساسيات تاريخ الفلسفة (في المجلد الخاص بفلسفة آباء الكنيسة والمتكلمين) الذي ظهر عام ١٩٢٧م وأُعيد طبعه عام ١٩٥١م. بالإضافة إلى هذه الأعمال، كتب هورتن مجموعة كبيرة من الدراسات المستقلة عن النظريات الفلسفية لنفر من الفلاسفة والمتكلمين، وتقريرات سنوية عن الكتب الجديدة في ميدان الفلسفة العربية وما إلى ذلك. كان ماكس هورتن يمتاز بقدرة إنتاجية عجيبة، ولكن أعماله لم تسبر الأغوار كما كنا نتمنى. ونحن نفتقد لديه، قبل كل شيء آخر، ترجمة الطرز الفكرية الكلامية التي يقدمها لنا من العصر الوسيط عن مصادرها إلى الطرز الفكرية في العصر الحاضر. وهناك فيما يعرض موضوعات كثيرة ينبغي أن يتناولها البحث التفصيلي الجزئي أولًا. وإذا انتقلنا إلى العصر الحديث وجدنا أعمالًا قيمة نشير من بينها إلى «مقالات في نظرية الذرات الإسلامية» (١٩٣٦م) بقلم زالمون بينس، و«نظرية الذرات في العصر الإسلامي المبكر» (١٩٣١م) تأليف «أوتو برتسل» (١٨٩٣–١٩٤١م)، و«نظرية الصفات الإسلامية المبكرة وأسسها الفلسفية وآثارها» (١٩٤٠م). ويصل برتسل، استنادًا إلى ما تحت يديه من مادة، وخاصة «مقالات الإسلاميين» للأشعري، إلى نتائج منها: أن النظرية الصفاتية

الإسلامية المبكرة لا سبيل إلى وصلها بالفلسفة الإغريقية أو إلى تفريعها عنها، كما كان الناس يظنون بناءً على مصادر متأخرة.

على أن التراث الإغريقي العلمي قد أثَّر بصفة عامة تأثيرًا خارقًا للعادة في نشأة الثقافة العربية الإسلامية، وخاصة تلك الأعمال المختصة بالفلسفة والطب. وقد جمع موريتس شتاينشنايدر (١٨١٦–١٩٠٧م) شتات هذا الموضوع في «الترجمات العربية المنقولة عن الإغريقية» (١٨٨٩–١٨٩٦م، طبعة مكررة ١٩٦٠م). وهناك بقلم جوتهلف برجشتريسر «حنين بن إسحق ومدرسته» (١٩١٣م) وهي دراسة تشمل المترجَم الهام ومنهجه، و«حنين بن إسحق، في ترجمات جالينوس السريانية والعربية» أخرجها وترجمها جوتهلف برجشتريسر (١٩٢٥م)، وأخرجها مزودة باستكمالات مرة ثانية (عام ١٩٣٢م). أما يوليوس هيرشبرج (١٨٤٣–١٩٢٥م) فأخرج دراسات منها «الكتب الدراسية العربية في طب العيون» (١٩٠٥م). وأما ماكس مايرهوف (١٨٧٤–١٩٤٥م) فقد تتبع الطريق التي سلكها العلم الهللينى الإغريقي حتى وصل إلى العرب في «من الإسكندرية إلى بغداد – مقال في تاريخ التعليم الفلسفي والطبي عند العرب» (١٩٣٠م)، وشبيه به تقرير يوزف شاخت (١٩٠٢م) «عن الهللينية في بغداد والقاهرة في القرن الحادي عشر» (١٩٣٦م). وهناك بقلم ماكس مايرهوف أيضًا — وكان يعمل عشرات من السنين في القاهرة طبيبًا للعيون، وألَّف عام ١٩٢٨م «عشر دراسات في العيون» — سلسلة كبيرة من المؤلفات الصغيرة ومن المقالات المنشورة في المجلات تدور حول موضوعات طبية تاريخية، منها مثلًا: «نظرية أرسطو في النور عند حنين بن إسحق» (١٩١١م)، «في تاريخ الدواء المصري للعيون ششم» (١٩١٣م)، «كتاب عربي مجهول في طب العيون من القرن الحادي عشر» (١٩٢٨م)، «في علم العقاقير وعلم النبات لأحمد الغافقي» (١٩٣٠م)، «مقدمة لعلم العقاقير للبيروني» (١٩٣٢م)، «ابن النفيس ونظريته في الدورة الرئوية» (١٩٣٥م).

وقد اشتغل بالعلوم الطبيعية في الإسلام خاصة إيلهارت فيديمن (١٨٥٢–١٩٢٨م) ويوليوس روسكا (١٨٦٧–١٩٤٩م). ألَّف فيديمن عددًا هائلًا من المقالات الصغيرة تدور حول موضوعات مختلفة خاصة في ميدان الفيزياء والتكنيك (منها حوالي ٧٠ في تقريرات جلسات جمعية الفيزياء والطب في إرلنجن). واشترك مع فريدريش هاوزر في إخراج مؤلَّف كبير عن «الساعات في مجال الثقافة الإسلامية» (١٩١٥م). وألَّف روسكا طائفة من المقالات نُشرت بالمجلات، علاوة على دراسات مستقلة مختلفة منها: «خالد بن يزيد بن معاوية» (١٩٢٤م)، «جعفر الصادق – الإمام السادس» (١٩٢٤م)، «لوح الزبرجد – دراسة في تاريخ المدونات السحرية» (١٩٢٦م)، «كتاب الزاج والأملاح» (١٩٣٥م)،

وترجمة ألمانية لكتاب الرازي «سر الأسرار» (١٩٣٧م). أما تلميذ روسكا، المستشرق باول كراوس (١٩٠٧–١٩٤٦م) الذي مات مبكرًا، فقد اشتغل في الميدان نفسه، وأخرج «جابر بن حيان – مقال في تاريخ الأفكار العلمية في الإسلام» (١٩٤٢-١٩٤٣م). وأما مارتن بلسنر (١٩٠٠م)، مؤلف كتاب «تدبير المنزل لبروسون الفيثاغوري المحدَث وأثره على العلم في الإسلام» (١٩٢٨م)، فقد كتب دراسةً عن «مواد جديدة في تاريخ لوح الزبرجد» (١٩٢٧م). وأخرج ألفرد زيجل (١٨٨٤–١٩٥٩م) «قاموس عربي ألماني لمواد عوالم الطبيعة الثلاثة التي ترد في مخطوطات الخيمياء العربية» (١٩٥٠م)، و«أسماء سرية في مدونات الخيمياء العربية» (١٩٥١م) و«فهرس مخطوطات الخيمياء العربية في ألمانيا» (١٩٥٦م)، وترجم زيجل، علاوة على ذلك، الأجزاء الخاصة «بطب النساء، وعلم الأجنة وصحة النساء» و«الكتب الهندية» و«الفصول التمهيدية» من كتاب فردوس الحكمة لعلي بن ربَّن الطبري (١٩٤١، ١٩٥٠، ١٩٥٣م).

أمَّا حديثنا عن الدراسات التي أُجريت في ميدان الرياضة والفلك فسيقل بكثير عن حديثنا عن الدراسات التي تمت في ميدان العلوم الطبيعية، وقد كان بدوره يلتزم الإيجاز. اشتغل في ميدان الدراسات الدائرة حول الرياضة والفلك عند العرب هاينرش زوتر (١٨٤٨–١٩٢٢م) خاصة، وخلَّف لنا دراسة شاملة هي: «الرياضيون والفلكيون العرب وأعمالهم» (١٩١٠م)، ثم تلاه كارل شُوي (١٨٧٧–١٩٢٥م)، وباول لوكاي (١٨٨٤–١٩٤٩م)، فنشر كارل شوي «في ظل الميل وجداول الظلال في علم الفلك العربي – مقال في حساب المثلثات عند العرب استنادًا إلى مخطوطات لم تُنشر» (١٩٢٣م) و«نظريات حساب المثلثات عند الفلكي الفارسي البيروني» (١٩٢٧م)، ونشر لوكاي مؤلفات نشير على الأقل إلى آخرها الذي ظهر بعد وفاته «علم الحساب عند جمشيد بن مسعود الكاشي ولمحات إلى التاريخ القديم للحساب» (١٩٥١م).

علم الآثار وتاريخ الفن

لعلم الآثار الإسلامية وتاريخ الفن الإسلامي حياتهما الخاصة يَحيَيانها بوصفهما عِلمين مستقلين، وإن اتصلا بصلاتِ تبادلٍ وثيقة أحدهما مع الآخر، وارتبطا بالدراسات الإسلامية بمعناها الواسع. وهما، إذا كانا حديثَي النشأة، لا يبلغان من العمر إلا عشرات قليلة من السنين، قد بلغا في هذه الفترة القصيرة ازدهارًا تامًّا، بفضل الكفاءة العلمية العالية والقدرة

التنظيمية البارعة التي تميَّز بها العلماء الذين أنشئوهما وطوروهما. وقد لعب التحمس الشخصي هنا دورًا حاسمًا، كما هي الحال في كل عمليات الإنشاء الجديدة.

خرج الحافز الأول من السويسري ماكس فان بِرْشِم (١٨٦٣–١٩٢١م) الذي أسس علم النقوش العربية. ولكن فضل تأسيس علم الآثار العربية بحقٍّ يرجع إلى الرائدَين فريدرش زاره، وإرنست هِرتسفِلد، كما يرجع فضل دفع تاريخ الفن الإسلامي ورفعه في النهاية إلى مرتبة العلم القائم بذاته إلى إرنست كونِل، يعينه ويسانده في ذلك فِيلهلم فون بُوده (١٨٢٤–١٩٢٩م) الذي بذل الجهود لإنشاء قسم خاص مستقل للفنون الإسلامية بالمتاحف البرلينية.

نظَّم فريدرش زاره (١٨٦٥–١٩٤٥م) رِحلات مختلفة للتنقيب عن الآثار، من بينها رحلة اشترك فيها مع إرنست هرتسفلد، واتجهت إلى منطقة الفرات ودجلة، وتمكَّنت في جولتين من اكتشاف مقر العباسيين في سامراء، قبل أن تندلع نيران الحرب العالمية الأولى. ونُشرت نتائج هذه الحفريات بعد ذلك في ستة مجلدات، ظهرت الخمسة الأولى منها «حفريات سامراء» بين عام ١٩٢٣م وعام ١٩٣٠م، وظهر المجلد السادس «تاريخ مدينة سامراء»، بقلم إرنست هرتسفلد عام ١٩٤٨م. وكان فريدرش زاره محبًّا للآثار الإسلامية يهوَى جمعها، وقد عرض مجموعته على سبيل الإعارة في برلين عندما عُيِّن عام ١٩٠٤م رئيسًا شرفيًّا للقسم الإسلامي بالمتاحف البرلينية. وأسهم بصفته رئيسًا علميًّا في إقامة «معرض روائع الفن الإسلامي» الكبير وإنجاحه في ميونخ عام ١٩١٠م. وألَّف «رسومات رضا عباسي» (١٩٠٤م) الذي يبيِّن مدى اهتمامه واشتغاله بفن تصوير الرسومات الدقيقة عند الفرس، ونشر «مجلدات كتب عربية» (١٩٢٣م) به صور من مجموعته ومن المجموعات المحفوظة بالمتاحف، كذلك اهتم بفن السجاد والسيراميك والفن السلجوقي الدقيق وكتب عنها.

أمَّا إرنست هرتسفلد (١٨٧٩–١٩٤٥م) فكان معماريًّا أصلًا، وحصر نشرياته في مجال علم الآثار والطبوغرافيا (علم تخطيط الأرض). كتب مقالًا بعنوان «نشأة الفن الإسلامي ومشكلة مَشْتَى» (١٩١٠م) تناول فيه بالدرس البناء الذي وصلت واجهته إلى برلين كهدية من السلطان عبد الحميد وحفظت في متحف القيصر فريدرش ببرلين، واعتبره قصر أحد الخلفاء الأمويين المتأخرين. وكتب دراسة أخرى موضوعها «بحوث في الجغرافية التاريخية لمنطقة دجلة والزاب الصغير وجبل حرمين». أمَّا أهم عمل أدبي له فقد قدمه في الكتاب الذي أشرنا إليه من قبل عن حفريات سامراء. ولا بأس من أن ننوِّه إلى أن زاره وهرتسفلد اهتما كلاهما بآثار إيران وأثمر اهتمامهما بها الشيء الهام.

ثم يأتي إرنست كونل (١٨٨٢–١٩٦٤م) الذي أتاحت له رحلاته العديدة وأعماله في ميدان المتاحف معرفة مباشرة دقيقة بالفن الإسلامي وأفرعه المختلفة المتباينة المتعددة، وكان إلى هذا يتمتع بموهبة تنظيم آرائه العلمية ونتائج أبحاثه في مؤلفات جامعة كبيرة، وعرضها في شكل ميسور في متناول جمهور واسع من القرَّاء. وإليك نماذج من عناوين مؤلفاته الكثيرة، خاصة من تلك التي تفتح الأفق بصفة عامة: «التصوير الدقيق في الشرق الإسلامي» (١٩٢٢م)، «الفن المغربي» (١٩٢٤م)، «الفنون الإسلامية الدقيقة» (١٩٢٥م، طبعة ثانية ١٩٦٣م)، «رسوم هندية دقيقة» (١٩٣٧م)، «فن الخط الإسلامي» (١٩٤٢م)، «الزخرفة العربية. معنى وتحور زخرفة». (١٩٤٩م). وأسهم إرنست كونل بمقالات قيمة في الطبعة الثالثة من كتاب فيلهلم فون بوده «سجاد بلدان آسيا الدنيا في العصور القديمة» (١٩٢٢م، الطبعة الرابعة ١٩٥٥م). أمَّا كتابه الأخير «المشغولات العاجية الإسلامية». فهو جاهز للطبع.

ونحب في هذا المقام أن نشير إلى كتابين عامَّين مهمين لمؤلفَين آخرَين. كتاب إرنست ديتس «فن الشعوب الإسلامية» (١٩١٥–١٩١٧م)، وكتاب هاينرش جلوك وإرنست ديتس «فن الإسلام» (المجلد الخامس من تاريخ الفن للناشر بروبلين، ١٩٢٥م). وقد اضطلع هاينرش جلوك في الكتاب الأخير — «فن الإسلام» — بكتابة الأجزاء الآتية: «مقدمات وبدايات» و«العمارة في البلدان العربية والتركية»، «فن الكتاب وفن التصوير الدقيق»، واضطلع إرنست ديتس بكتابة: «عمارة الديار الفارسية والهند» و«الصناعات الفنية الإسلامية».

العناية بالدراسات العربية وتطوِّرها إلى العَقد الرابع من القرن العشرين

لم يؤد استقلال الدراسات الإسلامية وتحوُّلها إلى علم قائم بذاته إلى قطيعة مع الدراسات العربية، بل على العكس، فقد أدى وجود أغلب المدوَّنات الإسلامية مكتوبة باللغة العربية إلى جعل الاشتغال باللغة العربية أمرًا ملحًّا في ضرورته.

وينبغي على الإنسان أن يميِّز في الدراسات العربية بين الدراسات المختصة باللغة والدراسات المختصة بالآداب العربية، على أنه لا يمكن الفصل بين الطائفتين من الدراسات فصلًا قاطعًا، كما أنه لا يمكن الفصل القاطع بين الدراسات الإسلامية من ناحية والدراسات العربية من ناحية ثانية. فالاشتغال مثلًا بقصائد عربية يؤدي طبعيًّا إلى مشكلات من شأن القواميس والنحويات، كذلك القواميس وكتب النحو إذا خلت من الإشارة الدائمة إلى النصوص تحوَّلت إلى هياكل جامدة. كذلك ينبغي أن نراعي أن الدراسات العربية كثيرًا ما تتم في إطار أوسع هو إطار الدراسات الساميَّة ويكون لها بهذا أهمية من نوع خاص. واللغة العربية هي اللغة الساميَّة التي أُوتيت أضخم أدب، لهذا فإنها عند الضرورة تفيد عند البحث عن استشهادات لإثبات وجود صيغ لغوية ساميَّة مميِّزة للسامية. وقد مضت الأزمنة التي كانت الدراسات العربية فيها تُجرَى بوصفها ملحقًا لدراسات اللغة العبرية.

النحو

أسهم نولدكه في النحو العربي بدراسات قيِّمة، خاصة الدراسات التي ظهرت في مذكِّرات أكاديمية فيينا عام ١٨٩٧م «في نحو اللغة العربية الفصحى»، والتي يسوق فيها استشهادات على قواعد النحو العربي، كلٍّ على حدة، وعلى ما يخرج عليها، بمجموعة هائلة

من النصوص التي قرأها وانتخبها وأثبتها في مذكراته لأهميتها النحوية. وقد أعيد طبع هذه الدراسة مرة أخرى عام ١٩٦٣م بعناية أنطون شبيتالر (١٩١٠م) مزوَّدة بإضافة كبيرة استُخدمت فيها الملاحظات التي دوَّنها نولدكه بيده في نسخته وزيادات أخرى. كذلك أفاد النحو العربي إفادة كبيرة من دراسة نولدكه «في لغة القرآن» التي ضمَّنها مجموعة «مقالات في علم اللغات الساميَّة» (١٩١٠م). ويبدأ المؤلف فيها تحت عنوان «القرآن والعربية» بنقد ما روَّج له كارل فولرس (١٨٥٧–١٩٠٩م) في كتابه «لغة العامة ولغة الكتابة في بلاد العرب قديمًا» من أن النص الأصلي للقرآن كان مؤلفًا بلهجة من اللهجات كانت سائدة في الحجاز وكانت خالية من الإعراب. أمَّا كتب النحو الكاملة فنشير منها إلى «النحو العربي لكسباري» الذي خرجت الطبعة الخامسة منه بتنقيح أوجست موللر (١٨٨٧م)، ولكن هذا النحو قلَّت أهميته بعد ظهور الطبعة الثالثة من «نحو اللغة العربية» بقلم و. روبرتسن سميث وم. ج. دي جوج، في جزأين باللغة الإنجليزية، الطبعة المسماة كاسباري-رايت (١٨٩٦–١٨٩٨م، أعيد طبعها عام ١٩٣٣م، ثم ١٩٥١م و١٩٥٥م). وهناك كتابان يعالجان تركيب الجمل بطريقة منظمة، كتاب هِرمَن رِكِندورف (١٨٦٣–١٩٢٣م) الأول «عَلاقات العبارات في اللغة العربية» (١٨٩٥–١٨٩٨م) بشروح تاريخية وسيكولوجية لكل ظاهرة من ظواهر العبارة العربية، وكتابه الثاني «العبارات العربية» (١٩٢١م) الذي ينتهج سبيل الوصف خاصة، والذي أصبح منذ ظهوره عُدة لكل دارس للعربية لا غنى له عنها، ولا يعيبه إلا أنه يستشهد بالشعر العربي والنثر العربي دون تفريق أو مراعاة لاختلاف النوعين في القيمة.

كذلك أَلَّف ألبرت زوتسين (١٨٤٤–١٨٩٩م) الذي يرجع في أصله إلى مدينة بازل في سويسرا والذي خَلَفَ المستشرق فلايشر على كرسي الاستشراق في لايبتسج، أَلَّف نحوًا عربيًّا عام ١٨٨٥م نُشِرَ في سلسلة «باب اللغات الشرقية»، تناوله كارل بروكلمَن (١٨٦٨–١٩٥٦م) من الطبعة الخامسة (١٩٠٤م) بالتنقيح والإكمال الدائم، ثم أظهره اعتبارًا من الطبعة الحادية عشرة (١٩٤١م) تحت اسمه وحده. وقد ظهرت الطبعة الثالثة عشرة من هذا النحو العلمي المنهجي المزوَّد بجداول الصرف عام ١٩٥٣م. أمَّا في كتابه الآخر «أساسيات النحو المقارن للغات الساميَّة» (المجلد الأول: النطق والصرف، ١٩٠٨م، المجلد الثاني: تركيب العبارات، ١٩١٣م)، فيُعتبر واحدًا من أعظم الأعمال العلمية التي أخرجها هذا العالِم المهم المنتِج، ويُعتبر مثل كتاب «العبارات العربية» لرِكِندورف عُدة لا غنى لدارس العربية عنها. وقد نشر كارل بروكلمَن كتابًا تعليميًّا موجزًا للطلاب اسمه «موجز النحو المقارن للغات الساميَّة» (المجلد ٢١ من سلسلة باب اللغات الشرقية، ١٩٠٨م)، اقتصر

فيه على قواعد النطق والصرف. وقد وصلتنا مجموعة كبيرة من المقالات الهامة أسهم بها أوجست فيشر (١٨٦٥–١٩٤٩م) في النحو العربي، وأوجست فيشر هو أهم ممثل للمدرسة اللايبتسجية في الاستشراق التي أسسها فلايشر، وكان عالِمًا يقوم بالدراسات النحوية قيام المحب لها المولَع بها. وقد نُشرت مقالات فيشر في النحو العربي على أعوام عديدة خاصة في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية، وفي المجلة التي كان يخرجها هو نفسه «إسلاميكا» وفي مقالات تكريم زملاء له، وفي هذه وتلك من النشريات، ولا يمكننا هنا أن ندخل في تفصيلاتها، وإن أحببنا أن نشير إلى دراسته «صيغ الحَلِف والدعاء ذات الصعوبة النحوية في اللغة العربية الفصحى»، التي ظهرت بعد وفاته في مجلة «الإسلام» (١٩٤٩م). ونعود هنا إلى الإشارة إلى الدراسة التي قام بها تلميذه جوتهلف برجشتريسر (١٨٨٦–١٩٣٣م) في ميدان النحو التاريخي: «أدوات النفي والاستفهام وما إليها في القرآن» (١٩١٤م). وهناك تلميذ آخر من تلاميذ فيشر هو أرتور شاده (١٨٨٣–١٩٥٢م) كتب رسالة الأستاذية في «قواعد النطق عند سيبويه» (١٩١١م). أمَّا المستشرق جوتهولد فايل (١٨٨٢–١٩٦٠م) فقد كتب دراسة خاصة «بالمدارس النحوية في الكوفة والبصرة» بوصفها مقدمة لطبعة «كتاب الإنصاف» لابن الأنباري (١٩١٣م).

وقد دخلت اللهجات أيضًا في الدراسات الدائرة حول النحو العربي، فأخرج فيلهلم شبيتا (١٨١٨–١٨٨٣م)، الذي كان قد استُدعِيَ للقاهرة ليعمل مديرًا لدار الكتب الخديوية، كتابه «نحو اللغة العربية الدارجة في مصر» (١٨٨٠م) عرضًا لنحو هذه اللهجة على نحو علمي لأول مرة، ثم أخرج خَلَفه في إدارة المكتبة الخديوية بالقاهرة كارل فولرس (١٨٥٧–١٩٠٩م) كتابًا في الموضوع نفسه «كتاب تعليم اللغة العربية الدارجة في مصر» (١٨٩٠م). ونشير في هذا المقام أيضًا إلى هانس شتُومه (١٨٦٤–١٩٣٦م) وكتابه «نحو العربية الدراجة في تونس ومعجم لها» (١٨٩٣م) وجيورج كامبفمايِر (١٨٦٤–١٩٣٦م) ودراساته «مقالات في علم اللهجات العربية» المجلدات من ١ إلى ٤ (١٨٩٩–١٩٠٣م)، وأوجست فيشر ودراسته «في قواعد نطق اللغة العربية العامية في المغرب» (١٩١٧م)، وليونهارد باور ودراسته «اللغة العربية الفلسطينية – لهجات أهل المدينة والفلاحين – قواعد وتمرينات ومجموعة نصوص» (الطبعة الثانية ١٩١٠م، الطبعة الرابعة عام ١٩٢٦م)، وجوتهلف برجشتريسر وكتابه «أطلس لغوي لسوريا وفلسطين» (١٩١٥م) ودراسته «في اللغة العربية الدارجة في دمشق» (١٩٢٤م)، وف. ك. فايسباخ ودراساته «مقالات في علم اللغة العربية الدارجة في العراق» (١٩٢٤م)، ونيكولاوس رودوكاناكيس

(١٨٧٦–١٩٤٥م) «اللهجة العربية الدارجة في ظفار» (١٩٠٨–١٩١١م) وك. راينهارت ودراسته «لهجة عربية دارجة في عمان وزنزبار» (١٨٩٤م).

المعاجم

لم ينتج الاستشراق الألماني في ميدان دراسات المعاجم في الفترة من بداية نشاط نولدكه إلى ثلاثينيات هذا القرن من النشريات إلا ما قلَّت أهميته. وأبرز ما فيه بحوث ل. فلايشر «دراسات في ملحق دوزي للقواميس العربية» (١٨٨١–١٨٨٧م، طبعت في المجلد الثاني والثالث من الكتابات الصغيرة عام ١٨٨٨م)، وكتاب زيجموند فرنكل (١٨٥٥–١٩٠٩م) «الكلمات الأجنبية الآرامية في اللغة العربية» (١٨٨٦م، أعيد طبعه في عام ١٩٦٢م) وهو دراسة شاملة مفيدة من ناحية تاريخ الثقافة أيضًا، وعمل فريدرش فيلهلم شفارتسلوزه «أسلحة قدماء العرب حسب شعر شعرائهم – دراسة في علم الآثار العربية وفي المترادفات وفي أبحاث المعاجم» (١٨٨٦م)، وكتاب هانس كِندرمَن «السفينة في اللغة العربية» (١٩٣٤م)، وكتاب ريشر «ألفاظ مجموعة البخاري» (موقَّع عام ١٩٢٢م) الذي لم يُطبع منه للأسف إلا عدد قليل من النسخ. وينبغي أن نُبرِز ونخص بالتقدير المعجم الذي أرفقه أوجست فيشر بكتابه «مختارات عربية من الناثرين» (١٩١٣م، طبعات أخرى عام ١٩٢٤ و١٩٢٨ و١٩٤٨م). أمَّا «قاموس اللغة العربية الحديثة واللغة الألمانية» الذي أخرجه أدولف فارموند (١٨٢٧–١٩١٣م) في طبعة أولى عام ١٨٧٤–١٨٧٧م، وثالثة عام ١٨٩٨م، فإنه غير مُرضٍ تمامًا من الناحية العلمية، وأحرى بهذا الحكم قاموس إرنست هاردر (١٨٥٤–١٩٢٧م) = «القاموس الألماني العربي» الذي صدر عام ١٩٠٣م. وأمَّا القاموس العربي الألماني لمحمد بروجش والذي نُشِرَ جزئيًّا حسب مخطوط مكتوب باليد، فإنه لم يكتمل. وهناك قواميس صغيرة الحجم مفيدة أخرجها اليسوعيون في بيروت؛ قاموس عربي فرنسي لاستعمال الطلاب بقلم ج. ب. بيلو، وقاموس عربي إنجليزي لاستعمال الطلاب بقلم ج. ج. هافا.

وإذا كان معجم اللغة العربية الفصحى الكبير لفريتاج (١٨٣٠–١٨٣٧م) قد استُعمل في الفترة المذكورة (وبعدها) وعُدَّ وسيلة أساسية، فالفضل في ذلك يرجع إلى أمور منها: أن قاموس إدوارد وليام لين «المعجم العربي الإنجليزي» في ثمانية مجلدات كان قد ظهر في الفترة بين عامي ١٨٦٣ و١٨٧٤م، وأكمل المادة التي عرضها فريتاج على نحو قيم، وصوَّب

طرفًا منها كان يحتاج إلى التصويب، ومع ذلك فقد ظهرت في وقت مبكر الاتجاهات الأولى نحو تحسين المُعِينات القاموسية وتوسيعها بالنسبة للغة العربية، على أساس النصوص التي ظهرت مطبوعة. فقد ترك هاينرش توربِكه (١٨٣٧–١٨٩٠م) عند وفاته مجموعة بطاقات كبيرة جمعها لتكون معجمًا في المستقبل، وسجل تيودور نولدكه في نسخته الخاصة من معجم فريتاج أمثلة كثيرة جدًّا ثمرة اشتغاله بالنصوص العربية. (وقام يورج كريمر ببحث المواد التي سجلها نولدكه في حرف الألف ونشرها في «معجم الاستشهادات للغة العربية الفصحى، إعداد تيودور نولدكه» ١٩٥٢ و١٩٥٤م. انظر بعده) وسجل هِرمَن رِيكِندورف (١٨٦٣–١٩٢٣م) ملحوظات كثيرة على معجم فريتاج. أمَّا أوجست فيشر (١٨٦٥–١٩٤٩م) فقد أخذ على عاتقه مهمة إنشاء معجم جديد علمي صحيح للغة العربية، وجمع مواد قاموسية كثيرة جدًّا من مختلِف مجالات العربية، وأعلن ابتداء من عام ١٩٠٧م أكثر من مرَّة أنه يُعِد معجمًا للغة العربية القديمة. ولكنه للأسف لم يتمكَّن من تنفيذ المشروع العظيم. حقيقة أن صناديق البطاقات حُمِلَت إلى القاهرة عندما عُيِّن فيشر عضوًا بمجمع اللغة العربية عام ١٩٣٤م، وأن فيشر اشتغل بإعداد مواد القاموس في أثناء إقاماته الشتوية المنتظمة بالقاهرة، ولكنه لم يصل إلى الهدف، لنشوب الحرب العالمية الثانية وتعطيلها إياه. فلمَّا انتهت الحرب، لم يتمكَّن من اتباع دعوة الحكومة المصرية والعودة إلى القاهرة. ولم تنتج المواد القاموسية التي جمعها فيشر ثمارها إلا في إطار «معجم اللغة العربية الفصحى» الذي بدأ في الظهور عام ١٩٥٧م، على نحو ما سنذكر في موضع آخر. ونود في ختام هذا العرض أن نشير إلى يوزف هوروفيتس (١٨٧٤–١٩٣١م) الذي اهتم في دراساته القرآنية اهتمامًا شديدًا بالاستعمال اللغوي في أعمال شعراء قبل الإسلام، وفكَّر في إنشاء معجم للشعر العربي القديم، وقام في معهد الدراسات الشرقية بالجامعة العبرية التي افتُتِحَت عام ١٩٢٥م في القدس بتفريغ الدواوين العربية المطبوعة في بطاقات لتحقيق هذا الهدف، ولكن شيئًا لم يخرج مطبوعًا من هذا المشروع.

وينبغي أن نشير إلى اشتراك علماء العربية الألمان في تفريغ مؤلفات الحديث في بطاقات، وهو عمل بدأ بعد الحرب العالمية الأولى إعدادًا «لمعجم الحديث المفهرس» الذي اضطلع أ. ي. فِنسِنك بإخراجه، وقد ظهرت من هذا المعجم المفهرس الضخم الذي يقصد إلى تبويب ألفاظ الحديث تبويبًا منظمًا، والذي يتَّسم بأهمية كبيرة للمعاجم العربية عامة، خمسة أجزاء، في الفترة بين عامَي ١٩٣٦م و١٩٦٥م.

فهارس الكتب العربية – مجموعات المخطوطات وقوائمها

سبق أن أشرنا في موضع آخر إلى كتاب كارل بروكلمَن (١٨٦٨–١٩٥٦م) «تاريخ الأدب العربي» الذي يضم في مجلداته الخمسة الضخمة الأدب العربي كله، سواء المطبوع منه أو المخطوط، باستثناء المؤلفات اليهودية والمسيحية الخاصة. أمَّا المؤلفات اليهودية فقد شملها كتاب موريتس شتاينشنايدر (١٨١٦–١٩٠٧م) «الأدب العربي عند اليهود» الذي ظهر عام ١٩٠٢م وتكرَّر طبعه عام ١٩٦٤م. أمَّا المؤلفات المسيحية فقد شملها كتاب جيورج جراف (١٨٧٥–١٩٥٥م) ذو الأجزاء الخمسة «تاريخ الأدب العربي المسيحي» (١٩٤٤–١٩٥٣م). وهناك بقلم ريشر «مختصر تاريخ الأدب العربي» في جزأين (١٩٢٥ و١٩٣٣م)، الذي ظهر للأسف في ٦٠ نسخة منقولة بالطبع عن الأصل المخطوط.

وتتسع حركة طبع الأعمال العربية الكلاسيكية وبعد الكلاسيكية من عام إلى عام اتساعًا كبيرًا، ومع هذا فلا ينبغي أن ننسى أن جزءًا كبيرًا من الأدب العربي ما زال مخطوطًا حتى اليوم، وأن الجيل الذي شهد الانتفاضة الحديثة للدراسات العربية ونشأة الدراسات الإسلامية بوصفها علمًا مستقلًا، كان حظه من المؤلفات المطبوعة أقل بكثير من حظ الجيل الحالي. وقد خرجت مجموعة من الأعمال الأدبية العربية الهامة، لا الأعمال الدائرة حول الدراسات الإسلامية فقط، بعناية مستشرقين أوروبيين لأول مرة مطبوعة، وكان للعلماء الألمان سهم وافر في هذا النشاط. وكان الشرط الأساسي للطبع هو، بدهيًّا، إثبات أصالة المخطوطات، لهذا كان الكشف عن المخطوطات العربية وجمعها ووصفها فرعًا هامًّا من أفرع الدراسات العربية.

وقد استحق ألويس شبرنجر (١٨١٣–١٨٩٣م) التقدير لما جمع من مخطوطات عربية، فقد اكتشف أثناء إقامته في الهند وأثناء رحلاته في الشرق الأدنى مخطوطات نادرة، فاقتناها أو انتسخ منها نسخًا، حتى اجتمع له ٢٠٠٠ مجلد عاد بها إلى أوروبا، من بينها ١١٠٠ مخطوط عربي، اشترتها مكتبة برلين عام ١٨٥٨م. وكان هاينرش بيترمن (١٨٠١–١٨٧٦م) قد بُعِثَ خصيصى إلى الشرق لشراء مخطوطات شرقية، وعاد ومعه مجموعتان. كذلك عرَف هذا العرض جامعًا آخر للمخطوطات هو يوهان جوتفريد فيتسشتاين (١٨١٥–١٩٠٥م)، كان يعمل في دمشق قنصلًا لبروسيا (١٨٤٨–١٨٦٢م) واقتنى أربع مجموعات من المخطوطات، ذهبت مجموعتان إلى برلين، ومجموعة إلى لايبتسج ومجموعة إلى توبنجن. وكُلِّفَ فيلهلم آلفارت (١٨٢٨–١٩٠٩م) عام ١٨٦٣م بمهمة تبويب المخطوطات العربية ببرلين، فأخلص للمهمة الشاقة غير المجزية أيَّما إخلاص، ولم يقف

عند حد تقويم المخطوطات بنفسه، بل نظمها ووصفها لفائدة مَن قد يهتم بها من العلماء، وكرَّس لهذا العمل عشرين سنة من عمره، وظهرت نتيجته في عشرة مجلدات من الحجم الكبير (١٨٨٧–١٨٩٩م) وأصبحت في متناول المتخصصين. رسم آلفارت صور شخصيات الأدباء المختلفين، وتتبع تطور الأنواع الأدبية المتباينة، وقدَّم ملخصًا دقيقًا لمضمون كل عمل، فاجتمع له بذلك كتالوج مخطوطات يفوق المألوف من هذا النوع، ويحتفظ على الدوام بقيمة ثابتة في تاريخ الأدب العربي، كتالوج إذا ما قورنت به الكتالوجات الأخرى صغرت وتضاءلت، وهكذا تتضاءل قيمة الشيء الحسن دائمًا إذا ظهر ما هو أفضل منه. ولكن لا ينبغي أن يعوقنا هذا عن التنويه بفضل العمل الزاهد الذي يكمن وراء كل مخطوط عربي جاهز للاستعمال. ولننتخب واحدًا على الأقل من أصحاب الكتالوجات، ننوِّه به ممثلًا للكثيرين الذين لا يتيح لنا هذا المجال التنويه بهم، لنذكر إذن كرستيان زايبولد (١٨٥٩–١٩٢١م) «مكتبة جامعة توبنجن – ثبت بالمخطوطات العربية» (١٩٠٧م، أكملها عام ١٩٣٠م ماكس فايسفايلر).

شعراء عرب

يحتل شعراء قبل الإسلام وشعراء صدر الإسلام مكانًا عاليًا في ميدان دراسة الأدب العربي الذي لا يتخذ من الدين موضوعًا له. وقد نشر نولدكه وترجم وشرح قصائد عروة بن الورد (١٨٦٣م)، كما ترجم مقدمة كتاب ابن قتيبة في حياة الأدباء ضمن «دراسات لمعرفة شعر قدماء العرب» (١٨٦٤م)، وكتب عن «قصائد اليهود في الجزيرة العربية»، و«مالك ومتمم ابنَي نويرة» و«الخنساء» و«البدو بوصفهم مُضَلِّلين للواثقين فيهم». كذلك ترجم وشرح خمسًا من المعلقات (١٨٩٩–١٩٠١م). وجمع في كتابه «مختارات من الشعر العربي» باقة يانعة من الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي، لاستعمالها في أغراض الدرس، وما زال الكتاب يُستعمل حتى اليوم (١٨٩٠م وأعيد طبعه عام ١٩٣٣م و١٩٦١م، وزوَّده أوجست موللر بمعجم). أمَّا هاينرش توربِكه (١٨٣٧–١٨٩٠م) فقد أخرج المفضليات غير كاملة، (١٨٨٥م)، في حين سار يوليوس فيلهاوزن في أعقاب طبعة كوزيجارتن (الجزء الأول عام ١٨٥٤م)، ونشر «الجزء الأخير من ديوان الهذليين، بالعربية والألمانية» (١٨٨٤م). واشتغل جولدتسيهر بديوان الحطيئة (١٨٩٣م) ونشر دراسة «عن التاريخ الأول لشعر الهجاء» (١٨٩٦م)، ونشر فيلهلم آلفارت (١٨٢٨–١٩٠٩م) خمريات أبي نواس (١٨٦١م)، ودواوين النابغة وعنترة وطرفة وزهير وعلقمة وامرئ القيس (١٨٧٠م) والأصمعيات

(١٩٠٢م) ودواوين شعراء الرجز رؤبة بن العجاج وابن قيس الرقيات وأبي المرقال (١٩٠٣م) وكوَّن رأيًا في مسائل أساسية في الدراسات العربية في دراسته «ملاحظات على أصالة القصائد العربية القديمة» (١٨٧٢م). وجاء المستشرق النمساوي العالم بالدراسات العربية، رودولف جاير، (١٨٦١–١٩٢٩م) فنشر في «أراجيز عربية قديمة» (١٩٠٨م) و«مقالات في ديوان رؤبة» (١٩١٠م) ملاحق ومكمِّلات كبيرة لطبعات آلفارت التي خص بها شعراء الرجز، كذلك نشر جاير «قصائد ومقتطفات لأوس بن حجر» (١٨٩٢م) وقصائد «ميمون بن قيس الأعشى مع قصائد لشعراء آخرين بالاسم نفسه وقصائد المسيب بن علس» (١٩٢٨م). أمَّا مواطنه نيكولاوس رودوكاناكيس (١٨٧٦–١٩٤٥م) فقد نشر طبعة نموذجية من ديوان ابن قيس الرقيات مع ترجمة ومقدمة (١٩٠٢م) ونشر دراسة طريفة عن «الخنساء ومراثيها» (١٩٠٤م). ونشر المستشرق السويسري فريدرش شولتهس (١٨٦٨–١٩٢٢م) ديوان حاتم الطائي مع ترجمة له (١٨٩٧م) كما نشر وترجم مقتطفات القصائد التي نقلها الرواة منسوبة إلى أمية بن أبي الصلت (١٩١١م). ونشر باول شفارتس (١٨٦٧–١٩٣٨م) طبعة من ديوان عمر بن أبي ربيعة مع عرض ممتاز للغته وأسلوبه وأوزانه (١٩٠٢–١٩٠٩م)، ونشر يوزف هوروفيتس (١٨٧٤–١٩٣١م) هاشميات الكميت (١٩٠٤م) وأخرج ياكوب بارت (١٨٥١–١٩١٤م) ديوان القطامي (١٩٠٢م)، ونشر يوزف هل (١٨٧٥–١٩٥٠م) طبقات الشعراء للجمحي (١٩٢٠م) ودواوين جديدة للهُذَليين (١٩٢٦ و١٩٣٣م مع ترجمة) والجزء الثاني من ديوان الفرزدق (١٩٠٠–١٩٠١م). وقدَّم جيورج ياكوب (١٨٦٢–١٩٣٧م) في الكراستين الأُولَيين من «دراسات في الشعراء العرب» (١٨٩٣ و١٨٩٤م) دراسات لفهم المعلقات. كذلك نشر طبعة نص تمتاز بالعمق، ومزوَّدة بترجمة وتعليق (دراسات «الشَّنفَرَى» عام ١٩١٤ و١٩١٥م) وترجمة ألمانية أدبية ممتازة لِلامِيَّة العرب (١٩٢٣م). وبث هِلموت رِيتر في دراسته «في لغة نِظامي التصويرية» (١٩٢٧م) ملاحظات من بينها ملاحظات ذات أهمية بالغة في الشهر العربي. وفي ختام عرضنا هذا نشير إلى ثلاثة أعمال اختصت الشعر العربي الشعبي بالدرس: «القصيدة العربية ذات المقاطع» أولًا: «الموشح» (١٨٩٧م) بقلم مارتن هَرتمَن، وديوان من وسط الجزيرة العربية جمعه وترجمه وشرحه «ألبرت زوتسين» (١٨٤٤–١٨٩٩م) ونشره هانس شتومه، عام ١٩٠٠ و١٩٠١م، و«حركات حديثة في الشعر الفني العراقي المعاصر» (١٩٢٦م) بقلم أرتور شاده (١٨٨٣–١٩٥٢م).

وقد أيقظ الاشتغال بالشعر العربي القديم بالضرورة الاهتمام بالبيئة التي عاش فيها الشاعر والتي ينبغي أن نفهمه على أساسها. ونشر إنُّو لِيتمَن (١٨٧٥–١٩٥٨م) الذي

صنع لنفسه اسمًا في ميدان دراسة النقوش الساميَّة، وشرح في مؤلفات عديدة نقوشًا عربية قديمة وملخصًا لنتائج أبحاثه في «ثمود وصفا – دراسات في علم نقوش الشمال العربي» (١٩٤٠م) كذلك أعطى يوليوس فيلهاوزن بكتابه «بقايا جاهلية عربية» (١٨٨٧م، طبعة ثانية ١٨٩٧م) صورة من عالم العرب الأقدمين من وجهة النظر الدينية التاريخية. وأخذ جيورج ياكوب (١٨٦٢–١٩٣٧م) في اعتباره الثقافة المادية عندما أنشأ كتابه الذي لا يزال جديرًا بالقراءة «حياة البدو قبل الإسلام» (١٨٩٥م، طبعة ثانية ١٨٩٧م). ولا يفوتنا أن ننوِّه في هذا المقام بإريش برووينلش (١٨٩٢–١٩٤٥م) وكتابه «بسطام بن قيس» (١٩٢٣م). وهناك كتاب فريدريش فيلهلم شفارتسلوزه «أسلحة العرب الأقدمين في شعر شعرائهم» (١٨٨٦م) وكتاب إريش برووينلش (١٨٩٢–١٩٤٥م) «البئر في بلاد العرب قديمًا» (١٩٢٥م) اللذان يمدان القارئ بمعلومات في موضوعات خاصة معيَّنة. ولما كانت نظم الحياة وأشكالها ثابتة في المنطقة الداخلية من الجزيرة العربية، وكان ذلك الثبات مميزًا لها حتى العشرات الأولى من القرن العشرين فقد اتخذت المؤلفات الحديثة التي تصوِّر الأحوال في تلك المنطقة حاليًّا أهمية كبيرة بوصفها وسيلة لمعرفة الأحوال فيها قديمًا، سواء كانت هذه المؤلفات تقارير رحالة أو دراسات جغرافية عامة. من تقارير الرحالة نشير إلى كتاب يوليوس أويتنج (١٨٣٩–١٩١٣م) الفريد «يوميات رحالة في داخل الجزيرة العربية» (في مجلدين ١٨٩٦–١٩١٤م)، ومن الدراسات الجغرافية نشير إلى كتاب برنهارد موريتس (١٨٥٩–١٩٣٩م) «البلاد العربية – دراسات في جغرافيتها الطبيعية والتاريخية» (١٩٢٣م)، وإلى كتاب فالتر ليش (١٩٣١م) «بلاد العرب» الذي يعطي تصويرًا صغيرًا تخطيطيًّا لها. أما كتاب ماكس فون أوبنهايم (١٨٦٠–١٩٤٦م) الكبير «البدو» فمفيد على نحو خاص، وقد ظهر المجلدان الأولان منه بمعاونة إريش برووينلش وفرنر كاسكل في عام ١٩٣٩ و١٩٤٣م، ونشر كاسكل الجزء الثالث بمفرده في عام ١٩٥٢م، ويُنتَظر صدور جزء رابع من الكتاب.

النثر العربي

ينقسم قطاع النثر العربي الفني غير العلمي إلى قسمين: قسم أعمال الأدب؛ أي الأعمال الثقافية العامة، وقسم الأعمال الشعبية التي تستهدف التسلية فحسب، على أن نراعي أن الفصل بين القسمين لا يمكن أن يتم بشكل نهائي قاطع، فهناك الأعمال الشعبية الهادفة إلى التسلية فقط التي تضفي على نفسها مسحة من الأساس العلمي، ونقصد بذلك إلى أنه ينبغي على الناس أن يأخذوها هي أيضًا مأخذ الجِد.

أخرج بروكلمَن ثلثًا من كتاب أدبي نَموذجي هو «عيون الأخبار» لابن قتيبة (١٩٠٤م إلى ١٩٠٨م)، وعالج أُوسْكَر ريشر (١٨٨٣م) «كتاب الأدب الكبير لابن المقفع» عام ١٩١٧م. كذلك كتب جوستاف ريشتر (١٩٠٦–١٩٣٩م) مقالًا في بعض المجلات «في كتاب الأدب الصغير لابن المقفع» (١٩٣١م)، ودراسة خاصة هي «دراسات في تاريخ أصول عربية قديمة لمرآة الأمراء» (١٩٣٢م). وكتب ألفرد فينر في موضوع على الحدود بين الأدب الفني والأدب الشعبي في مقال تفصيلي نُشِرَ ببعض المجلات عام ١٩١٣م بعنوان: «في أدب الفرج بعد الشدة»، كما كتب ب. لوزن (١٩٣٥م) مقالًا عن أهم أديب يمثل هذا الفرع «التنوخي، طريقته وفنه»، وأخرج رودي بارت (١٩٠١م) موجزًا لموضوعات قصص غرامية من كتاب ابن السرَّاج المسمى «مصارع العشاق» في مقال بعنوان: «قصص غرامية عربية قديمة – دراسة في تاريخ الأدب المقارن» (١٩٢٧م)، وعالج فرنر كاسكل (١٨٩٦م) فرعًا من فروع الأدب يمتاز بالتأثير والجاذبية هو «أيام العرب الأقدمين» في دراسة خاصة صغيرة «أيام العرب – دراسات في الفن الملحمي العربي القديم» (١٩٣٠م).

وكثيرًا ما عالج المستشرقون الأعمال الشعبية المسلية العامة، ونذكر منها أول ما نذكر «ألف ليلة وليلة»، أخرج ترجمة ممتازة لها المستشرق إنُّو لِيتمَن (١٨٧٥–١٩٥٨م) في ستة أجزاء بين عامَي ١٩٢٣ و١٩٢٨م بعنوان: «حكايات من ألف ليلة وليلة»، وألحقها بدراسة «عن نشأة ألف ليلة وليلة وتاريخها». وقد تناول لِيتمَن ألف ليلة وليلة بالدرس مرة أخرى، وكتب مقالًا صغيرًا عنها بعنوان: «ألف ليلة وليلة في الأدب العربي» (١٩٢٣م). وهناك مقال مفيد ممتاز بقلم يوزف هوروفيتس (١٨٧٤–١٩٣١م) نشره في «مجلة الأمم» عام ١٩٢٧م عن «نشأة ألف ليلة وليلة»، ومقال آخر بقلمه أيضًا نُشِرَ بمناسبة تكريم زاخاو، رد فيه «الاستشهادات الشعرية في ألف ليلة وليلة» إلى أصولها (١٩١٥م). وفي عام ١٩٢٥م نشر أُوسْكَر ريشر ترجمة ألمانية لكتاب أوستروب الأساسي «دراسات في ألف ليلة وليلة»، ولكنه طبع ٦٠ نسخة فقط. وكان ريشر قد نشر في عام ١٩١٩م بحثًا في مجلة «الإسلام» عن دراساته الخاصة في مضمون ألف ليلة وليلة. وكتب أرتور شاده دراسة اتخذ فيها رأيًا في «أصل بعض قصص أبي نواس وصيغتها الأولى في ألف ليلة وليلة» (١٩٣٤–١٩٣٦م).

وهناك نشريات خاصة بالروايات الشعبية العربية والأساطير العربية التي تحكي عن الغزوات في عصر النبي محمد: حكايات بني هلال (١٨٩٩م) بقلم مارتن هَرتمَن (١٨٥١–١٩١٨م)، ورواية عنترة العربية (١٩٢٥م) و«أهمية رواية عنترة العربية في

تاريخ الأدب المقارن» (١٩٣١م) بقلم برنهارد هيللر؛ و«سيرة سيف بن ذي يزن – رواية شعبية عربية» (١٩٢٤م) و«تاريخ الإسلام في مرآة الأدب الشعبي العربي» (١٩٢٧م)، و«رواية عمر النعمان الفرسانية وعلاقتها بألف ليلة وليلة» (١٩٢٧م) و«أدب المغازي الأسطوري – أعمال أدبية عربية عن الغزوات الإسلامية في عصر محمد» (١٩٣٠م) بقلم رودي بارت أو «الكتاب الشعبي العربي عن الملك الظاهر بيبرس» (١٩٣٦م) بقلم هِلموت فانجلين.

ولا يفوتنا أن نذكر في ختام كلامنا نشريات صغيرة تعالج موضوعات أدبية مختلفة الأنواع: من تأليف جيورج ياكوب (١٨٦٢–١٩٣٧م) «دراسات في نصوص ألعاب خيال الظل العربي لابن دانيال» (١٩١٠م وما بعدها)، ومن تأليف كارل بروكلمَن «أمثال وحكايات الحيوان في الأدب العربي القديم» (١٩٢٦م)، ومن تأليف رودي بارت «العنصر التراجيكي في الأدب العربي» (١٩٢٨–١٩٢٩م).

الاستشراق الألماني منذ عام ١٩٣٣م

كان للحرب العالمية الأولى أثرها على الاستشراق الألماني، فأصابت من المستشرقين مَن نعلم ومَن لا نعلم. وقد كان من نتائجها أن خسرت ألمانيا مستعمراتها في أفريقيا، وليس من الممكن الجزم بأن ضياع هذه المستعمرات كان له أثر سيئ على تقدم الاستشراق. والحقيقة أن ضياع هذه المستعمرات أدى إلى ضياع حافز مباشر على الاشتغال بالعالم الفكري للمسلمين في المستعمرات الألمانية بشرق أفريقيا. ولكن ابتعاد الألمان عن كل ألوان السيطرة السياسية على قطاع المستعمرات صفَّى الجو بين الألمان والشرقيين، وأدى إلى تحوُّل الدراسات الاستشراقية في ألمانيا إلى علم مجرَّد عن الغرض تمامًا. وهكذا بقي الاهتمام بعالم الإسلام وبكل مظاهر النشاط فيه مستمرًّا قويًّا بعد نهاية الحرب، بل وازداد قوة بما أوتي من حافز جديد.

أما استيلاء النازي على السلطة في ألمانيا في عام ١٩٣٣م والتطوُّر الذي مرَّت به ألمانيا نتيجة لذلك، فقد أدى إلى الإضرار بالدراسات الاستشراقية في ألمانيا. وأصيب أولئك العلماء الذين كانوا يقومون بعملهم حتى ذلك الوقت دون أن ينالهم ضرر؛ أصيبوا بالرعب المعنوي المتزايد، بأنهم أبقَوا على إحساس فطري بالحق والإنسانية، واضطُر منهم مَن اضطر إلى الهجرة. وكانت النتيجة نقصًا واضحًا في عدد المستشرقين من ناحية، ومن ناحية أخرى إحساس المستشرقين الذين ظلوا في ألمانيا، ولم يهاجروا، بالحرج نتيجة لتصوُّرهم أن مجتمع العالم الحر يعاديهم. فلما جاءت الحرب العالمية الثانية بلغت بالمحنة قمة أخرى أكثر ارتفاعًا. فقد اختطف الموت عددًا من المستشرقين الذين كانوا يعيشون ويصوِّرون أنفسهم من الناحية الفكرية كمن يعيش على جزيرة، فلما انتهت الحرب كان علينا أن نعاني من الجوع والبرد، وأن نعاني من الإحساس بالمشاركة في تحمل مسئولية أعمال الحكم النازي.

والناس يتحدَّثون كثيرًا عن معجزة النهضة الاقتصادية بعد الحرب. ونحن كذلك نحس بمعجزة من الناحية المعنوية، أدَّت إلى تمكننا من استعادة العلاقات الفكرية بأهل العالم الحر، أو إلى تمكُّننا من التمهيد لها، وأدت إلى عودة تدريجية للتبادل العلمي بين المستشرقين الذين ظلوا في ألمانيا، وبين الذين آثروا الهجرة، وعاد الاستشراق الألماني عضوًا في جماعة العلماء الدولية.[١]

[١] تصرفنا في ترجمة أجزاء من هذا الفصل. (المترجم)

الدراسات الإسلامية

اتساع ميدان العلم – دليل الاستشراق

كان علم الدراسات الإسلامية، ذلك الفرع الصغير نسبيًّا في شجرة علوم الاستشراق، واضح المعالم والحدود نوعًا ما في مطلع القرن العشرين. فلما ظهر كتاب جوستاف بفانموللر في عام ١٩٢٣م «دليل الأدب الإسلامي» (استعملت الكتاب في حديثي عن الفترة القديمة في أكثر من موضع وأخذت عنه أحيانًا حرفيًّا) كانت المادة التي عالجها العلماء المتخصصون في الاستشراق قد نمت نموًّا عظيمًا. ومنذ ذلك الحين حتى الآن ظهرت أبحاث تفصيلية وإجمالية كثيرة كثرة تجعل من المحال تقريبًا أن يعرف الإنسان طريقه وسط الكمية الضخمة من النشريات، أو حتى أن يُلِم بأسمائها وموضوعاتها بانتظام. وربما سهل الأمر على مَن عاصر العشرات الأخيرة من هذا النمو الهائل شخصيًّا، أما الطلاب الذين يهبون مادة الدراسات الإسلامية أنفسهم في الوقت الحاضر، فإن الوضع بالنسبة إليهم يلوح كأنه مُيئِس، فهم يجدون أنفسهم حيال جبل من المؤلفات المتخصصة، ويبحثون بلا جدوى عن مرشد، فلا يجدون.

لهذا كان اهتمام برتولد شبولر (١٩١١م) بإخراج «دليل الاستشراق» أمرًا يستوجب الترحيب في هذه الظروف، وهو كتاب يهدف إلى تمهيد الطريق أمام الطالب إلى مادة علوم الاستشراق المختلفة، على نحو منظم. وقد ظهر المجلد الأول الخاص بـ «تاريخ البلاد الإسلامية» يجمع فصولًا بقلم شبولر نفسه، وبقلم ي. كيسلنج، وهـ. شيل، وج. يشكه، وآخرين، في ثلاثة أجزاء عام ١٩٥٢ و١٩٥٣ و١٩٥٩م، وظهر المجلد الخاص بالأديان يجمع فصولًا بقلم يوهان فوك عن السُّنَّة، وبقلم ر. شتروتمَن عن الشيعة والخوارج عام ١٩٦١م. وظهر المجلد الخاص بالشريعة الإسلامية بتمهيد في الشريعة الإسلامية الأساسية

بقلم أوتو شبيس وأ. بريتش، ويجمع فصولًا مختلفة عن الشريعة حديثًا في البلاد الإسلامية المختلفة (بقلم متخصصين أجانب) عام ١٩٦٤م. ويُلاحَظ أن الأجزاء المكوِّنة لهذا الكتاب الكبير جاءت متفاوتة نوعًا ما في لونها، كما يحدث عادة عندما يشترك نفرٌ كبيرٌ من العلماء المتخصصين في إنشاء عمل واحد. على أن هذا الكتاب في مجموعه لا يعدو أن يكون معينًا أوليًّا يفيد المبتدئين خاصة.

والصعوبات الحقيقية لا يمكن التغلُّب عليها بكتاب دليل ولو كان الكتاب الدليل مثاليًّا غير ذي تفاوت في أجزائه. وتصور إمكانية الإحاطة بكل ميادين الدراسات الإسلامية إحاطة علمية شاملة، والقيام علاوة على ذلك بالبحث، على فرض توافر الوقت والطاقة، تصوُّرٌ يتأكد بمرور الوقت مدى ما يعتوره من وهْم. وقد جمع برتولد شبولر ولودفيج فورر عناوين المؤلفات التي ظهرت في الفترة ما بين عامَي ١٩٣٩ و١٩٤٩م خاصة بالشرق الأدنى، وذلك في السلسلة التي يخرجها كارل هون عن تقارير الأبحاث العلمية، واحتاجا لذلك إلى أكثر من ٢٠٠٠ صفحة. كذلك صنف ج. د. بيرسن «الفهرس الإسلامي» وهو قائمة تضم الدراسات التي نُشرت بالمجلات ومجموعات المقالات خاصة بالدراسات الإسلامية (يعني دون ما نُشِرَ في شكل كتب) في الفترة بين ١٩٠٦م و١٩٥٥م، فزادت على ٢٦٠٠٠ عنوان، ثم أُتبِعَ الفهرس بمجلد للأعوام من ١٩٥٦م إلى ١٩٦٠م يضم ما يزيد على ٧٢٠٠ عنوان. فمن ذا الذي يستطيع الإحاطة بمادة في هذا الحجم؟! ليس أمام العلماء من حل سوى اختيار طائفة محدودة من الموضوعات من بين الكمية الهائلة من موضوعات العلم والبحث المتشعبة، وتركيز البحث الخاص على نقط بعينها، والرضا فيما عدا ذلك بفكرة إجمالية عامة عن العلم في مجموعه. وهذا هو ما حدث حتى الآن فعليًّا، وإن يكن عن قصد وشعور واضح في كل الأحوال. كل مستشرق له ميادين تخصصه التي يتقنها نوعًا ما، في حين يعرف ميادين العلم الأخرى معرفة يشوبها النقص. وليس المهم أن يكون الإنسان عليمًا بكل شيء، ولكن المهم هو أن يضع مِجسَّه على نقاط تتسم — إذا ما قِيست بالمادة في مجموعها- بالأهمية، وتؤدي على هذا النحو إلى فهم شيء جوهري. على أنه من المرغوب فيه أن يقوم العالِم المتخصص، الذي تدفعه الظروف التي أشرت إليها إلى أن يصبح متخصصًا في موضوعات بعينها، بتلخيص نتائج أبحاثه وخلاصة أفكاره وتوصيلها في لغة مفهومة إلى زملائه في التخصص من ناحية، وإلى غير المتخصصين من ناحية ثانية. وهذه هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها للمتخصص أن يضع نفسه في إطار أوسع ينتج ما فيه النفع والفائدة. فإذا لم يفعل، تعرض لخطر التحوُّل إلى شخص غريب الأطوار بما أُوتي من علم متخصص.

والأرقام التي أشرنا إليها ممثلة للنمو الهائل في النشريات الاستشراقية، تعني الإنتاج العالمي كله، لا الألماني وحده، وللألمان فيها نصيب. ونصيب الألمان فيها، خاصةً في فترة العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة، نصيب كبير، خاصة في ميدان الدراسات الإسلامية.

طبعات كتب السِّيَر – دراسات المخطوطات وقوائم المخطوطات

يختص عدد كبير من نشريات الدراسات الإسلامية الحديثة بتسجيل النصوص العربية وإعدادها (وكذلك الفارسية والتركية)، وهو عمل يُعَد تمهيدًا هامًّا للأبحاث التفصيلية التالية. هكذا اضطلع نفر من المستشرقين بإخراج طبعات من بعض كتب السِّيَر، فاشتغل هِلموت رِيتر وز. دِيدرنج بكتاب الصفدي الضخم «الوافي بالوَفَيات» وهو كتاب كأنه تكملة لكتاب ابن خِلِّكان «وَفَيات الأعيان»، وأخرجا منه (منذ ١٩٣١م) أربعة مجلدات. ويشتغل يوزف فان إيس (١٩٣٤م) حاليًّا بإخراج طبعة من الجزء التاسع. وقد نشر مانفرد فلايشمن (١٩٢٨م) كتاب ابن حِبَّان البُستي «مشاهير علماء الأمصار» (١٩٥٩م)، ونشرت سُوزانَا دِيفالد فيلتسَر كتاب ابن المرتضى «طبقات المعتزلة» (١٩٦١م)، ونشر رودولف زيلهايم (١٩٢٨م) كتاب سير العلماء لأبي عبد الله المَرزُباني (١٩٦٤م) المسمى «نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء».

وينبغي أن نشير في هذا المقام إلى الدراسات الكثيرة التي تناولت المخطوطات متفرقة، أو مجموعات المخطوطات، خاصة في إسطنبول والأناضول. وقد حفَّز إلى هذه الدراسات المستشرق هِلموت رِيتر الذي ظل يعمل في إسطنبول سنوات عديدة. ونشر هِلموت ريتر مجموعة من الدراسات الهامة في هذا الموضوع (ظهرت في «أنباء إسطنبولية» ١، ١٩٣١م، ثم تحت عنوان «فيلولوجيكا» في مجلة «الإسلام» ابتداء من عام ١٩٢٨م، وفي مجلة «أورينس» ابتداء من عام ١٩٤٨م). وظهرت الدراسات التالية، بعضها باقتراح منه، وبعضها مستقلة عن تأثيره بقلم يوزف شاخت (١٩٠٢م) «من مكتبات القسطنطينية والقاهرة» (١٩٢٨م) و«من مكتبات القاهرة، (٢، ١٩٣٠م) و«من مكتبات شرقية» (٣، ١٩٣١م). وبقلم أوتو شبيس (١٩٠١م) «دراسات في تاريخ الأدب العربي – رجال قانون، مؤرخون، علماء حديث» (١٩٣٢م)، وبقلم ماكس فايسفايلر (١٩٠٢م) «دراسات في المخطوطات الإسطنبولية الخاصة بمدونات الحديث» (١٩٣٧م). وبقلم ماكس كراوزه (١٩٠٩–١٩٤٤م) «مخطوطات إسطنبولية لرياضيين إسلاميين» (١٩٣٦م)، وبقلم أوتو شبيس «مكتبات الحجاز» (١٩٣٦م)، وبقلم فالتر هينتس (١٩٠٦م) «دراسات في مصادر

تاريخ التيموريين» (١٩٣٦م). وبقلم فريتس ماير (١٩١٢م) «مخطوطات إسطنبولية لثلاثة متصوفين فارسيين» (١٩٣٧م) وبقلم لودفيج فورر (١٨٩٧م) «مخطوطات مؤرخين إسلاميين في إسطنبول» (١٩٤٢م) وبقلم يورج كريمر (١٩١٧–١٩٦١م) «دراسات ليجاخو[١] في فقه اللغة العربية قديمًا» (١٩٦١م). وبقلم فيلهلم هونرباخ (١٩١١م) «في بعض المخطوطات ببغداد وتطوان» (١٩٥٥م)، وقد بدأ شتيفان فيلد (١٩٣٧م) في إنشاء وصف للمخطوطات العربية في صنعاء.

وهناك مشروع هام بدأت الجمعية الشرقية الألمانية بمعاضدة جماعة البحث الألمانية عام ١٩٥٧م في تنفيذه، وهو إعداد كتالوج للمخطوطات الشرقية في ألمانيا، ويسير المشروع بخُطى حثيثة تحت إشراف فولفجنج فوجت، أول مدير للجمعية، الذي يضطلع بالإشراف والتحرير الإجمالي. ولم يبدأ العمل بعد بالنسبة للدراسات الإسلامية والدراسات العربية. ويتلخص المشروع في وصف الآلاف من المخطوطات العربية والفارسية والتركية التي لم تُبوَّب بعد. وقد اضطلع رودولف زيلهايم (١٩٢٨م) وإيفالد فاجنر (١٩٢٧م) وفولفجنج رويشل (١٩٢٤م) وح. جنجاني (تونس). أما العمل في المخطوطات الفارسية فيقوم به فيلهلم إيلرس (١٩٠٦م) مع فيلهلم هاينتس، وفي المخطوطات التركية مانفرد جوتس وباربرا فلمنج وهَنَّا زورفايده.

بلاد العرب قديمًا – محمد والقرآن

ظهرت كتب تعالج البلاد العربية قديمًا، منها الجزء المسمى «بلاد العرب» الذي ظهر عام ١٩٦٣م في إطار الكتاب الأساسي في علوم الآثار، وألَّفه أدولف جرومن (١٨٨٧م)، والجزآن اللذان صدرا حتى الآن من كتاب «العرب في العالم القديم» (١٩٦٣ و١٩٦٥م) من تأليف ف. ألتهايم ور. شتيل. هذا إلى مقالات صغيرة ولكن قيمة، ظهرت حديثًا منها: من تأليف فرنر كاسكل (١٨٩٦م) «مملكة لِحْيان العربية» (١٩٥٠م) و«لِحيان واللِّحيانية لغة وثقافة مملكة عربية قديمة» (١٩٥٤م)، و«أهمية البدو في تاريخ العرب» (١٩٥٣م) و«كشوف في بلاد العرب» (١٩٥٤م). ومن تأليف يوزف هينيجر (١٩٠٦م) «التضحية غير

[١] ليجاخو Legajo كلمة إسبانية تعني، كما ذكر لي الأستاذ الدكتور رودي بارت في خطاب أرسله إليَّ، مخطوطات بالمكتبات الإسبانية لم تُبوَّب بعد لأنها ناقصة. (المترجم)

الدموية بالحيوان في عصر ما قبل الإسلام، من وجهة نظر علم الأجيال» (١٩٥٠م)، «هل ما يُسمَّى تقرير نيلوس مصدر علمي ديني صالح للاستعمال؟» (١٩٥٥م) و«التضحية بالبشر عند العرب» (١٩٥٨م) «في علم التنجيم وتقديس النجوم في شمال ووسط بلاد العرب» (١٩٥٤م) و«الاعتقاد في الأرواح عند العرب قبل الإسلام» (١٩٦٣م). كذلك ينبغي أن نشير إلى الدراسات الآتية: من تأليف يوزف كورت زولفرنك (١٩٣٤م) «إشارات إلى صيغ تشريعية عربية قديمة في القرآن»، ومن تأليف إليونوره هوبتنر (١٩٣٩م) «إشارات قرآنية إلى الثقافة المادية للعرب الأقدمين» (١٩٦٥م). وفي عام ١٩٤٥م أصدرت روزه كلينكه روزنبرجر ترجمة ذات تعليق لكتاب الأصنام لابن الكلبي. وعما قريب يظهر بقلم فرنر كاسكل تحليل نقدي ضخم لكتاب النسابة هشام بن محمد الكلبي. وهناك نشريات، بعضها ضخم، بقلم كارل راتينس (١٨٨٧م) وماريه هوفنر (١٩٠٠م) وهرمن فون فيسمن (١٨٩٥م) تختص بالجغرافية التاريخية وبجنوب الجزيرة العربية خاصة، ولا حاجة بنا هنا إلى الدخول في تفصيلاتها. ولا بأس من أن ننوِّه هنا إلى أن هرمن فون فيسمن أنتج أعمالًا أخرى؛ منها خريطة البلاد العربية قبل الإسلام، ونعني الخريطة المهمة المفيدة التي ظهرت في كتاب «بلاد العرب» لجرومن، الصادر عام ١٩٦٣م.

وهناك مقالات عديدة نُشرت في المجلات حول محمد والقرآن، بعضها من تأليف يوهان فوك (١٨٩٤م) وبعضها من تأليفي. وقد حاولت تلخيص الوضع الحالي للبحث في هذا الموضوع في كتابي الصغير «محمد والقرآن – تاريخ النبي العربي وبعثته» (١٩٥٧م) الذي توجهت به إلى طبقات أوسع من القراء (ظهرت منه طبعة ثانية عام ١٩٦٦م). ونشرْتُ عام ١٩٥٠م، اعتمادًا على عينة ترجمة للسورة الثلاثين من القرآن، مقالًا عن «حدود بحوث القرآن». وقد ظهرت بين عامَي ١٩٦٣ و١٩٦٦م ترجمة ألمانية كاملة للقرآن بقلمي، هي ثمرة اشتغال عميق بالنص القرآني استمر سنوات طويلة، وتقصد هذه الترجمة إلى المساعدة على فهم القرآن فهمًا تاريخيًّا، فهي تصوغ الأجزاء المختلفة على النحو الذي أعتقد أنها عُنيت به عندما نطق بها النبي العربي، وكثيرًا ما تضيف إضافات معيَّنة لتوضح العبارة الأصلية التي كثيرًا ما تتصف بالإيجاز والاقتضاب، وتضع هذه الإضافات بين أقواس حتى يُفرَّق بينها وبين النص الأصلي. وتتجه نيتي إلى نشر تفسير القرآن (بمعجم مفهرس) في الأعوام القادمة. ويقوم هِلموت جيتيه (١٩٢٧م) بإعداد الجزء الخاص بالقرآن وعلماء القرآن، «لمكتبة الشرق» التي يخرجها ج. ز. فون جرونيباوم.

التاريخ السياسي والثقافي

يحتل قطاع التاريخ من الدراسات الإسلامية، استنتاجًا من عدد النشريات التي اختصت به. مكان الصدارة في الأهمية. وكان من بين هذه النشريات مؤلفات شاملة مثل كتاب فرانتس تيشنر (١٨٨٨م) «تاريخ موجز للعالم العربي» الذي ظهر عام ١٩٤٤م، وأعيد طبعه مرة أخرى عام ١٩٦٤م بعد إضافة فصل «العالم العربي في عصر القوميات» بقلم فريتس شتيبات (١٩٢٣م). وينبغي أن نشير إلى الدراسات التالية التي ظهرت في تاريخ العالم طبعة بروبيلين الجديدة: بقلم رودي بارت «الإسلام والعرب قبيل نهاية العصر الوسيط» (١٩٤٠م) وبقلم فرانتس تيشنر «إيران في العصر الوسيط» (١٩٤٠م)، وبقلم رودولف تشودي (١٨٨٤–١٩٦٠م) «التاريخ العثماني حتى نهاية القرن السابع عشر» (١٩٤١م). وإلى الدراسة الدسمة الهامة «الإسلام» التي كتبها جوستاف إدموند فون جرونيباوم ١٩٠٩م ونشرها في آخر طبعة من تاريخ العالم للناشر بروبيلين (١٩٦٣م). وقد عالج رودولف تشودي موضوع «انتشار الإسلام حتى عام ٧٥٠م» (١٩٥٦م) في المجلد الخامس من تاريخ العالم Historia Mundi. وقد سبق أن أشرنا إلى «تاريخ البلدان الإسلامية» في دليل الاستشراق، وفيه عالج برتولد شبولر (١٩١١م) «عصر الخلفاء – نشأة وسقوط الإمبراطورية الإسلامية» (١٩٥٢م) و«عصر المغول» (١٩٥٣م). والجزء الثالث من هذا التاريخ يختص بالعصر الحديث (١٩٥٩م) ويضم الفصول الآتية: بقلم هانس يواخيم كيسلنج (١٩١٢م) «الدولة العثمانية حتى ١٧٧٤م»، وبقلم هِلموت شيل (١٨٩٥م) «التاريخ العثماني من ١٧٧٤م إلى ١٩١٨م»، وبقلم جوتهارد يشكه (١٨٩٤م) «تاريخ تركيا منذ هدنة مودروس»، وبقلم هِلموت براون «تاريخ إيران منذ ١٥٠١م»، وبقلم إرنست كلينجموللر (١٩١٤م) «العالم العربي في العصر الحديث» و«تاريخ مصر منذ ١٧٧٩» وبقلم هربرت هرتل (١٩٢١م) «تاريخ الجزء الأدنى من الهند منذ ١٥٢٥م». وقد عالج جوستاف ريشتر (١٩٠٦–١٩٣٩م) في موجز قصير موضوع «الصورة التاريخية عند المؤرخين العرب في العصر الوسيط» (١٩٣٣م)، وترجمت أنيماري شيمل (١٩٢٢م) أجزاء مختارة من مقدمة ابن خلدون (١٩٥١م). ونشير في هذا المقام إلى الطبعة الجديدة من الوسيلة التاريخية الهامة «جداول فوستنفلد مالر المقارنة للتقويم الإسلامي والإيراني مع جداول لتحويل التواريخ الشرقية والميلادية» التي ظهرت عام ١٩٦١م بتنقيح برتولد شبولر وتجديده.

وتدور غالبية الدراسات التاريخية حول فترات تاريخية محددة تحديدًا ضيقًا، حول تواريخ أسر، أو حول مجموعة من مجموعات البلدان التي تحللت إليها الدولة الإسلامية

الكبيرة في العصر العباسي. وتُضاف إلى هذه الموضوعات موضوعات مناقشة أسس الثقافة الإسلامية وعلاقتها بالهللينية. وهناك مجالان تاريخيان خاصان شملتهما الدراسة المنظمة وتوسعت فيهما هما: مجال كشف أوراق البردي ودراستها، ومجال جمع الوثائق ونشرها، وخاصة ما كانت منها متصلة بتاريخ الإدارة. ويرجع إلى أدولف جرومن (١٨٨٧م) فضل الاشتغال بأوراق البردي والعناية بدراستها، ويرجع إلى هانس روبرت رويمر (١٩١٥م) فضل العناية ببحوث الوثائق.

ونشير فيما يلي إلى النشريات الخاصة بالقطاعات المختلفة، ويحول مقتضى الحال بيننا وبين السعي إلى شمول النشريات كلها.

العصور الأولى – العصر الأموي – العصر العباسي

من أعمال فيلهلهم هونرباخ (١٩١١م) «فصل من كتاب الردة لأبي زيد بن الفرات الفارسي استخلصه من كتاب الإصابة لابن حجر – دراسة في تاريخ تدهور القبائل العربية بعد موت محمد» (١٩٥١م)، وبقلم يوزف لاتس «كتاب الوزراء والكتاب لابن عبدوس الجهشياري – العصور الأولى وعصر بني أمية» (ترجمة ١٩٥٨م)، وبقلم ألبرت ديترش (١٩١٢م) «الوصية السياسية للخليفة العباسي الثاني المنصور» (١٩٥٤م)، وبقلم فالتر هلليجه «وصاية الموفق» (١٩٣٦م) وبقلم مانفرد فلايشهمر (١٩٢٨م) «أسرة يزيدي – أثرها الأدبي ومكانتها في البلاط العباسي» (١٩٦٢م)، و«بنو المنجم – أسرة بغدادية من العلماء من القرن الثاني إلى الرابع الهجري» (١٩٦٣م)، ومن تأليف فيلهلم هونرباخ «في إدارة الجيش أيام العباسيين» (١٩٥٠م).

تاريخ مصر

بينما تعالج الكتب التي أشرنا إليها موضوعات من العصور الأولى ومن عصر الأمويين والعباسيين، تعالج المؤلفات الآتية تاريخ مصر خاصة: هناك من تأليف أدولف جرومن (١٨٨٧م) «دراسات في الجغرافيا التاريخية وفي الإدارة في مصر بالعصر الوسيط المبكر» (١٩٥٩م)، وبقلم ديتر موللر-فودارج، «الزراعة في مصر في العصر العباسي المبكر» (١٩٥٤–١٩٥٧-١٩٥٨م)، وبقلم هانس ل. جوتشالك (١٩٠٤م) «المضرائيون – دراسة في تاريخ مصر الإسلامية» (١٩٣١م) و«الملك الكامل وعصره» (١٩٥٨م) وبقلم

هانس ر. رويمر (١٩١٥م) «تاريخ ابن الدواداري، الجزء التاسع، أخبار السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون» (١٩٦٠م)، وبقلم جوتس شريجله (١٩٢٣م) «سلطانة مصر» (١٩٦١م) وبقلم أنيماري شيمل (١٩٢٢م) «الخليفة والقاضي في مصر بالعصر الوسيط» (١٩٤٢م) وبقلم صبحي لبيب (١٩٢٤م) «تاريخ التجارة بمصر في العصر الوسيط المتأخر» (١٩٦٥م).

وينبغي أن نشير في هذا المقام إلى الجهود التي بذلت للكشف عن الوثائق البردية العربية الكثيرة ودراستها والإفادة منها، هذه الوثائق البردية كلها من مصر، وتشكل قبل كل شيء آخر مادة لتاريخ العصر الوسيط المبكر الإسلامي في مصر. نشط في هذا الميدان بصفة خاصة أدولف جرومن (١٨٨٧م) وعالج مجموعات كاملة من البرديات في نشريات نذكر منها: «أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية» (١٩٣٤–١٩٥٥م)، وكتب دراسات متعددة في مشكلات البحث في أوراق البردي العربية، وله كذلك كتاب تحت الطبع «تمهيد إلى دراسة الأوراق البردية العربية، ومنتخب منها». وقد ظهر الجزء الأول (التمهيد) منذ عام (١٩٥٤م). كذلك نشر ألبرت ديترش (١٩١٢م) أوراق بردي عربية ورسائل عربية من مكتب الدولة والجامعة الهامبورجية (١٩٣٧–١٩٥٥م).

تاريخ فارس

هناك مؤلفات كثيرة كثرة خاصة عن تاريخ فارس. من أعمال برتولد شبولر (١٩١١م) «عملية تحول فارس إلى الإسلام» (١٩٥٠م) و«إيران في العصر الإسلامي المبكر – السياسة والثقافة والإدارة والحياة العامة بين الغزو العربي والغزو السلجوقي، من ٦٣٣م إلى ١٠٥٥م» (١٩٥٢م) وبقلم هريبرت بوسه (١٩٢٦م) «البويهيون في العراق – السياسة والدين والثقافة والاقتصاد، ٩٤٥–١٠٥٥م» (١٩٦٥م)، وبقلم ي. كريستوف بورجل (١٩٣١م) «الرسائل الديوانية لعضد الدولة» (١٩٦٥م)، وبقلم هريبرت هورست (١٩٢٥م) «حكومة السلاجقة الكبار والخوارزمشاه – دراسة تعتمد على وثائق من العصر» (١٩٦٤م)، وبقلم هربرت ف. دودا (١٩٠٠م) «تاريخ السلاجقة لابن بيبي» (١٩٥٩م)، وبقلم برتولد شبولر «الجحافل الذهبية – المغول في روسيا ١٢٢٣–١٥٠٢م» (١٩٤٣م، طبعة ثانية ١٩٦٥م) وبقلم هانس ر. رويمر (١٩١٥م) «مقترحات لجمع وثائق تاريخ فارس الإسلامي» (١٩٥٤م) و«في وثائق تاريخ مصر وفارس في العصر الإسلامي» (١٩٥٧م)، وبقلم هريبرت بوسه «نظرة إجمالية في علم الوثائق الفارسية

– نتائج ومشكلات» (١٩٦١م)، وبقلم هريبرت هورست «تيمور وخوجة علي – دراسة في تاريخ الصفويين» (١٩٥٨م)، وبقلم هانس ر. رويمر «تاج السلماني، شمس الحسن – تاريخ التيموريين من وفاة تيمور إلى عام ١٤٠٩م. النص الفارسي، مترجم إلى الألمانية» (١٩٥٦م) و«الرسائل الديوانية في عصر التيموريين – الشرفنامه لعبد الله مروارید في دراسة تقييمية نقدية» (١٩٥٢م)، وبقلم فالتر هينتس (١٩٠٦م) «صعود إيران إلى دولة قومية في القرن الخامس عشر» (١٩٣٦م)، وبقلم هَنَّا زورفايده «انتصار الصفويين وتأثيره العكسي على شيعة الأناضول في القرن السادس عشر» (١٩٦٥م)، وبقلم هانس ر. رويمر «تدهور إيران بعد موت إسماعيل الفظيع ١٥٧٧–١٥٨١م» (١٩٣٩م)، وبقلم هانس موللر (١٩٢٧م) «خلاصة التواريخ للقاضي أحمد قُمِّي – الجزء الخاص بالشاه عباس الثاني، نشر وترجمة» (١٩٦٤م)، وبقلم هريبرت بوسه «دراسات في نظام الديوان الإسلامي تعتمد على وثائق تركمانية وصفوية» (١٩٥٩م)، وبقلم كلاوس ميشائل رورىورن «أقاليم فارس والحكم المركزي بها في القرن السادس عشر والسابع عشر» (١٩٦٥م)، وبقلم فالتر هينتس «نظام الحسابات في بيوت المال الشرقية بالعصر الوسيط» (١٩٥٠م).

التاريخ العثماني

من ميادين البحث الهامة ميدان التاريخ العثماني. وقد سبق أن أشرنا إلى فرانتس بابينجر (١٨٩١م) في موضع آخر باعتباره ممثلًا لهذا التخصص من الدراسات الاستشراقية. وهناك أيضًا باول فيتك (١٨٩٤م) الذي دفع البحث في التاريخ القديم والتاريخ المبكر للدولة العثمانية إلى الأمام بكتابيه «إمارة منتشه – دراسات في تاريخ غرب آسيا الصغرى في الفترة من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر» (١٩٣٤م) و«ازدهار الإمبراطورية العثمانية» (١٩٣٨م). أمَّا إخراج الطبعات ومعالجة المصادر فنذكر من بينها: من أعمال فريدرش جيزه (١٨٧٠–١٩٤٤م) «كتب تاريخ عثمانية مجهولة المؤلف» (١٩٢٥م) و«التاريخ العثماني القديم لأشيك باشا زاده» (١٩٢٩م)، وبقلم فرانتس تشنر (١٨٨٨م) «جيهانومه – التاريخ العثماني القديم لمولانا محمد نشري» (١٩٥١–١٩٥٥م)، وبقلم هاينتس هِلموت جيزكه (١٩٠٢م) «كتاب عزيز بن أردشير إسترابادي – مصدر لتاريخ العصر الوسيط المتأخر في آسيا الصغرى» (١٩٤٠م)، وهناك دراسات أخرى نشير من بينها إلى دراسة فرانتس تشنر «شبكة الطرق الأناضولية حسب المصادر العثمانية» (١٩٢٤–١٩٢٦م) ومن أعمال برباره فلمنج (١٩٣٠م) «تاريخ مناطق بامفيليا وبيسيديا وليكيا

في العصر الوسيط المتأخر» (١٩٦٤م)، وبقلم فالتر هينتس «نظام الضرائب في شرق الأناضول في القرن الخامس عشر والسادس عشر» (١٩٥١م)، وبقلم هانس يواخيم كيسلنج (١٩١٢م) «دراسات لمعرفة تراقيا في القرن السابع عشر» (١٩٥٦م)، وبقلم ريشارد فريدرش كرويتل (١٩١٦م) «كارا مصطفى أمام فيينا – يوميات تركية لحصار فيينا عام ١٦٨٣م سجلها تَشريفانجي الباب العالي» (١٩٥٥م) و«في بلاد التفاحة الذهبية» (١٩٥٧م)، وبقلم ريشارد فريدرش كرويتل بالاشتراك مع أوتو شبيس (١٩٠١م) «أسير الكفار – مغامرات الترجمان عثمان أغا التمسواري، يرويها بنفسه» (١٩٦٢م). هذا وقد عالج فرانتس تشنر في دليل الاستشراق «الأدب العثماني» (١٩٦٣م).

التاريخ الثقافي

أسهم جوستاف أ. فون جرونيباوم (١٩٠٩م) في دراسات التاريخ الثقافي إسهامًا كبير الأهمية يتمثل في كتابه «الإسلام في العصر الوسيط» الذي ظهر عام ١٩٦٣م كالمجلد الأول من «مكتبة الشرق» التي يخرجها المؤلف نفسه. أمَّا الموضوعات التفصيلية فتتوسطها حتى اليوم دراسة علاقة الإسلام بالهللينية. هناك من أعمال هانس هاينرش شيدر (١٨٩٦–١٩٥٧م) «الشرق والتراث الإغريقي»، ومن أعمال رودي بارت «الإسلام والثقافة الإغريقية» (١٩٥٠م)، وبقلم هانس ل. جوتشالك (١٩٠٤م) «الإسلام والمسيحية والهللينية» (١٩٥١م) وكذلك «تقبل الإسلام للعلوم القديمة» (١٩٦٥م)، وبقلم برتولد شبولر (١٩١١م) «التفكير الهلليني في الإسلام» (١٩٥٤م)، وبقلم يورج كريمر (١٩١٧–١٩٦١م) «مشكلة تاريخ الثقافة الإسلامي» (١٩٥٩م)، وبقلم هِلموت جيتيه (١٩٢٧م) «أفكار في مشكلة التاريخ الثقافي الإسلامي» («العالم كتاريخ» ١٠٦٠)، وبقلم فرانتس روزنتال (١٩١٤م) «بقاء الثقافة الإغريقية في الإسلام» (المجلد الثاني من «مكتبة الشرق»، ١٩٦٥م).

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى دراسات ثلاث اختصت بموضوع العلاقات الأدبية بين الثقافة الإغريقية والثقافة العربية: دراسة يورج كريمر «الأصل العربي لكتاب التفاحة Liber de Pomo المنسوب إلى أرسطو» (١٩٥٦م)، و«أبيات هوميرية في العربية» (١٩٥٦م)، ودراسة مانفريد أولمن (١٩٣١م) «الرواية العربية لما يسمى بحِكَم ميناندر» (١٩٦١م). وينوي بيتر باخمن (١٩٣٦م) التخصص في العلاقات الثقافية الإغريقية العربية ببحوث علمية ينشئها في هذا الميدان. أمَّا يورج كريمر الذي كان يداعبه هذا الأمل نفسه فقد اختطفه الموت مبكرًا.

وهناك بقلم أوتو شبيس (١٩٠١م) مؤلفات صغيرة الحجم تدور حول العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب: «آثار ثقافية شرقية في الغرب» (١٩٤٩م)، و«الشرق في الأدب الألماني» (١٩٤٩-١٩٥٠م)، و«موضوعات شرقية في حكايات الأخوين جريم» (١٩٥٢م). وقد قامت كاتارينا مومزن (١٩٢٥م) في إطار البحث في أعمال جوته بتتبع المؤثرات الشرقية التي أثرت عليه، وأنشأت: «جوته وألف ليلة وليلة» (١٩٦٠م) و«جوته والمعلقات» (١٩٦٠م) و«جوته وديتس» (١٩٦١م).

ويعمل هاينتس هوجو جروتسفلد (١٩٣٣م) حاليًّا في دراسة تاريخية ثقافية للحمام، وهانس موللر (١٩٢٧م) في دراسة للرق في صدر الإسلام.

ونختم عرضنا هذا بالتنويه بثلاث نشريات تدور حول الجغرافيا التاريخية: «ألمانيا والبلاد المجاورة لها حسب جغرافية الإدريسي الكبيرة» (١٩٣٨م) و«مسار العبدري في شمال أفريقيا في عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م» (١٩٤٠م) بقلم فيلهلم هونرباخ (١٩١١م) و«خريطة كولومبوس المفقودة التي ترجع إلى عام ١٤٩٨م حسب خريطة تركية للعالم ترجع إلى عام ١٥١٣م» (١٩٣٣م) بقلم باول كاله (١٨٧٥–١٩٦٤م).

أصول الدين الإسلامي وتاريخ العقائد والفِرق، والتنسك، والتصوُّف، والطوائف – العادات والثقافة المادية

سبق أن أشرنا إلى كتاب هرمن شتيجْلِكَر عن «المذاهب الفقهية في الإسلام» (١٩٦٢م) وإلى الدراسات التي أسهم بها هِلموت ريتر في تاريخ الدين الإسلامي والتصوُّف الإسلامي. وينبغي أن نضيف هنا إلى ما سبق أن ذكرناه من أعمال ريتر: «دراسات في تاريخ التنسك في الإسلام – بداية فرقة الحروفية» (١٩٥٤م)، «احتفالات مولانا في قونية من ١١ إلى ١٧ ديسمبر ١٩٦٠م» (١٩٦٢م)، وطبعة كتاب فريد الدين عطار «إلَهي نامه» (١٩٥٣م). وهناك دراسات مستقلة جدية عن إحياء علوم الدين للغزالي، منها «دراسات في كتاب التوبة للغزالي» بقلم سوزانا فيلتسر (١٩٥٧-١٩٥٨-١٩٥٩م) و«في العادات الطيبة في المأكل والمشرب (آداب الأكل)، الكتاب الحادي عشر من الإحياء للغزالي» (١٩٦٤م). وهناك بقلم يوزف فان إس (١٩٣٤م) عرض عميق بعنوان: «أفكار الحارث المحاسبي بناء على ترجمات لكتاباته» (١٩٦١م)، ومقال اسمه: «الملحدون والشُّكَّاك في الإسلام» (١٩٦٤م)، هذا ويُعِد يوزف فان إس طبعة لمؤلفات المحاسبي الصغيرة وتفسيرًا للكتاب الأول من «المواقف في علم الكلام» للإيجي تحت عنوان: «مواد في نظرية المعرفة بالفقه الإسلامي»، تحت الطبع. وقد

أخرجت سوزانا ديفالد-فيلتسر كتاب المرتضى «طبقات المعتزلة» (١٩٦١م)، وقام إرنست ماينتس بأبحاث في «الأخلاق عند المعتزلة» (١٩٣٥م). وهناك أبحاث أخرى نذكرها في هذا المقام: «الماتريدي وكتابه تأويلات القرآن» (١٩٦٥م) بقلم مانفريد جوتس، و«الفاطميون وقرامطة البحرين» (١٩٥٩م) بقلم فيلفرد ماديلونج، وبقلم ماديلونج أيضًا: «الإمامة في فجر المذهب الإسماعيلي» (١٩٦١م) و«الإمام القاسم بن إبراهيم ومذهب الزيديين» (١٩٦٥م).

وهناك أعمال كثيرة تدور حول التصوُّف والفرق: من أعمال فالتر براونه (١٩٠٠م) «فتوح الغيب لعبد القادر» (١٩٣٣م)، ومن أعمال فريتس ماير/بازل (١٩١٢م) «في التصوُّف الإسلامي» (١٩٤٣م)، و«حياة الشيخ أبي إسحق الكازروني» (١٩٤٨م) و«فواتح الجمال وفواتح الجلال لنجم الدين كبرى» (١٩٥٧م) و«ترتيب السلوك للقشيري» (١٩٦٣م). وبقلم ي. ك. تويفل (١٩١٦م) «سيرة الشيخ علي حمداني» (١٩٦٢م)، ومن أعمال هانس يواخيم كيسلنج (١٩١٢م) «مناقب نامه للشيخ بدر الدين» (١٩٥١م) و«من تاريخ طائفة الخَلْوتية» (١٩٥٣م) و«في تاريخ طائفة دراويش البَيْرَمية» (١٩٥٦م) و«كرامات الدراويش» (١٩٥٧م) و«طرف من أخبار طائفة الزَّيْنية في الدولة العثمانية» (١٩٦٤م). وبقلم ماري لويزه بريمر «مذكرات الدرويش التركي أشى داره إبراهيم» (١٩٥٩م)، وبقلم إيرينه بلديكانو شتاينهر «الشيخ أفتاده، مؤسس طائفة الخلوتية» (١٩٦١م)، وبقلم ريشارد جراماليش «فرق الدراويش الشيعة في فارس – الجزء الأول: الانتساب» (١٩٦٥م)، وبقلم أنيماري شيمل (١٩٢٢م) «اللغة التصويرية لجلال الدين الرومي» (١٩٤٩م) و«حياة ابن الخفيف» (١٩٥٦م)، وقد اتجهت أنيماري شيمل حديثًا إلى الاشتغال على نحو عميق بالتصوُّف الإسلامي في المنطقة الهندية. وقد سبق أن أشرنا من قبل إلى أعمال يوزف فان إس في المحاسبي.

هناك دراستان حديثتان عن العادات في صدر الإسلام، تستمدان مادتهما من ابن سعد والبخاري: «عادات الدفن العربية في صدر الإسلام» (١٩٥٤–١٩٥٧م) بقلم إيرينه جروتر و«أشكال التعامل بين الناس في مجتمع المدينة بعصر صدر الإسلام» (١٩٦٣م)، وقد أشرنا من قبل إلى ترجمة هانس كِندرمَن للكتاب الحادي عشر من إحياء علوم الدين للغزالي «آداب الأكل» «العادات الطيبة في المأكل والمشرب»، ودراسته التي يتبع فيها هذه العادات إلى ما وراء حدود الإسلام على الأرض الأوروبية. ولدينا من أعمال هانس ألكسندر فينكر (١٩٠٠–١٩٤٥م) عدد من الدراسات الفلكلورية العميقة منها: «أختام وأشكال في السحر عند المسلمين» (١٩٣٠م)، «سليمان والقرينة» (١٩٣١م) و«زُرَّاع بين الماء والصحراء»

(١٩٣٤م) و«أرواح الموتى الراكبة» (١٩٣٦م) و«فلكلور مصري» (١٩٣٦م). أمَّا أعمال إنُّو لِيتمَن (١٨٧٥–١٩٥٨م) في هذا الميدان فنذكر منها: «عبارات استحضار الأرواح في مصر» (١٩٥٠م) و«أناشيد عربية إسلامية للأولياء» (١٩٥١م). وهناك بقلم تسيزرا دوبلر (١٩١٥م) «في تقديس القبور والأولياء عند المسلمين» (١٩٦٠م) وبقلم رودولف كريس (١٩٠٣م) وهوبرت كريس-هاينرش: «الإيمان الشعبي في محيط الإسلام» (المجلد الأول: الحج وتقديس الأولياء ١٩٦٠م، والمجلد الثاني: الأحجبة والأعمال والتعاويذ ١٩٦٢م). وهناك بقلم إرنست راكو (١٨٨٨–١٩٥٩م) «دراسات في معرفة الثقافة المادية في شمال غرب المغرب» (١٩٥٨م).

الشريعة الإسلامية

فقد الاستشراق في ميدان تخصص تاريخ الشريعة الإسلامية الكثير لهجرة يوزف شاخت (١٩٠٢م)، وكان قد أصدر في عام ١٩٣٥م بمجلة «الإسلام» دراسة باللغة الألمانية بعنوان: «نظرة اجتماعية للشريعة الإسلامية». أمَّا كتابه الذي أثار الانتباه «أصول الشريعة الإسلامية» (١٩٥٠م)، والذي صدر باللغة الإنجليزية، فإنه لا يدخل بالطبع ضمن المدوَّنات الألمانية. على أن الحقبة الأخيرة شهدت مجموعة كبيرة من الدراسات الألمانية في مسائل الشريعة الإسلامية. فقد نشر فيلهلم هونرباخ (١٩١١م) منذ وقت قليل «وثائق إسبانية إسلامية من عصر بني نصر والموريسكوس» (١٩٦٥م) مع دراسة لها في مؤلَّف كبير. كذلك أخرج هانس إرنست (١٩٢٦م) طبعة وترجمة وشرحًا «للوثائق السلطانية المملوكية في دير سيناء» (١٩٦٠م)، وأنشأ ألبرت ديتريش (١٩١٢م) تقريرًا عن الوضع الراهن لأبحاث الشريعة القائمة على الوثائق العربية» (١٩٥٧م). وهناك من أعمال إريش بريتش (١٨٧٧–١٩٦١م) وأوتو شبيس (١٩٠١م) دراسات تدور حول موضوعات تفصيلية من الشريعة الإسلامية، قاما بها أحيانًا مشترِكَين، منها مثلًا: «عقود التوريد في الإسلام» (١٩٥٦م) و«اللقيط في القانون الإسلامي» (١٩٥٧م)، ومن أعمالهما أيضًا «الشريعة الإسلامية التقليدية» الذي سبق أن أشرنا إليه، والذي ظهر في دليل الاستشراق (١٩٦٤م، بثبت مفصل للمراجع والمصادر). ومن أعمال إرفين جريف (١٩١٤م): «نظام القضاء والتقاضي في الشريعة الإسلامية» (١٩٥٥م)، و«مشكلة عقوبة الإعدام في الإسلام» (١٩٥٧م)، و«الصيد والذبيحة في الشريعة الإسلامية» (١٩٥٩م)، و«المفاهيم الدينية والشرعية عن الأسرى في الإسلام والمسيحية» (١٩٦٣م)، و«نظام التقاضي لدى البدو المعاصرين» (١٩٥٢م). وبقلم

يوزف هيننجر (١٩٠٦م) «حق الملكية عند البدو في الجزيرة العربية حاليًّا» (١٩٥٩م) وبقلم فريدريش زيلله «قانون الإجراءات في الدولة العثمانية في القرن السادس عشر» (١٩٦٢م). كذلك هناك أبحاث متفرقة تأخذ في اعتبارها نظم التقاضي الحديثة في البلدان الإسلامية، منها بقلم إريش بريتش «قانون الأحوال الشخصية التونسي» (١٩٥٨م) وبقلم جوتشد يشكه (١٨٩٤م) «نظام عقد الزواج حسب الشريعة التركية» (١٩٤٠–١٩٥٣م).

الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية والرياضيات

كما تدهور النصيب الألماني في بحوث الشريعة الإسلامية بهجرة يوزف شاخت، كذلك أحدثت هجرة ريشارد فالتسر (١٩٠٠م) ثغرة محسوسة في صفوف المستشرقين الألمان الذين يشتغلون بمشكلات الفلسفة الإسلامية. ولكن فالتسر يأتي لحُسن الحظ بانتظام من وطنه الإنجليزي الجديد إلى هامبورج ليلقي محاضرات بوصفه أستاذًا زائرًا في موضوع تخصصه. أمَّا الدراسات الألمانية الحديثة المختصة بموضوعات من تاريخ الفلسفة فنذكر منها: بقلم ألبرت ديترش (١٩١٢م) «الصيغة العربية لكتاب مجهول من تأليف إسكندر الأفروديسي في الفصل النوعي» (١٩٦٤م)، ورسالتين من رسائل الدكتوراه؛ واحدة بقلم باول فرنست (١٩٢١م) «مبحث الكون ومبحث الله من كتاب النكت والفوائد لابن سينا، يُنشر لأول مرة مع ترجمة وشرح طبقًا للمخطوط الوحيد فيض الله ١٢١٧م»، والأخرى بقلم هِلموت جيتيه (١٩٢٧م) «تلخيص كتاب الحس والمحسوس لابن رشد» ١٩٦١م. ولدينا من أعمال جيتيه أيضًا مقالات قصيرة منها: «مذاهب فلسفية في تأويل الأحلام في الإسلام» (١٩٥٩م)، و«ابن رشد شارحًا لأرسطو» (١٩٦٤م) و«كتاب الحس والمحسوس للفارابي عند ألبرتوس ماجنوس» (١٩٦٤م).

وقد تعددت الدراسات الحديثة في تاريخ الطب. هناك من أعمال هِلموت ريتر وريشارد فالتسر: «الترجمات العربية لأطباء إغريق في مكتبات إسطنبول» (١٩٣٤م)، وبقلم هاينرش شيبرجس «قدماء مترجمي الطب العربي في ثبت مرتب زمنيًّا» (١٩٥٥م)، «أيديولوجيا العربية وكتابة التاريخ» (١٩٦١م) و«إساغة العصر الوسيط اللاتيني للطب العربي» (١٩٦٤م)، وبقلم هِلموت جيتيه «نظرة في الطب الإسلامي بالعصر الوسيط» (١٩٦٢م)، وبقلم أوتو شبيس (١٩٠١م) «مقالات في تاريخ طب الأسنان عند العرب» (١٩٦٢م)، و«ثلاثة فصول في طب المسالك البولية عند العرب» (١٩٦٤م)، وبقلم بيتر بخمن (١٩٣٦م) «مقال جالينوس في أن الطبيب الممتاز لا بد أن يكون فيلسوفًا، بالعربية والألمانية» (١٩٦٥م)

(وينوي بخمن إخراج طبعة وترجمة لشرح ابن النفيس على الأوبئة لأبقراط). ولا يفوتنا أن ننوِّه في هذا المقام بمقال ألبرت ديتريش (١٩١٢م) العليم في «تجارة العقاقير في مصر الإسلامية» (١٩٥٤م). ولألبرت ديتريش كتاب في «الطب العربي» تحت الطبع.

وقد سبق لنا أن أشرنا إلى دراسات ألفرد زيجل (١٨٨٤–١٩٥٩م) في تاريخ العلوم الطبيعية، وهناك دراسات أخرى في الميدان نفسه نشير منها إلى دراسة بقلم يوليوس روسكا (١٨٦٧–١٩٤٩م) وكارل جاربرس (١٨٩٨م) «تنبيهات لصناعة السكاكين الحادة» (١٩٣٩م)، وبقلم جاربرس «كتاب كيمياء العطر والتصعيدات، ليعقوب بن إسحق الكِندي» (١٩٤٨م)، وبقلم ماتياس شرام «طريق ابن الهيثم إلى علم الطبيعة» (١٩٦٣م)، وبقلم باول كاله (١٨٧٥–١٩٦٤م) «الكوارتز الشفاف والزجاج والبلور حسب كتاب الأحجار للبيروني» (١٩٣٦م)، ومن أعمال هِلموت ريتر ومارتن بلسنر (١٩٠٠م) «بيكاتريكس – غاية الحكيم المنسوب إلى المجريطي» (١٩٦٢م)، وبقلم ماكس كراوزه (١٩٠٩–١٩٤٤م) «البيروني، باحث إيراني في العصر الوسيط» (١٤٩٢م)، وكان ماكس كراوزه، الذي سقط في الحرب العالمية الثانية وهو في الخامسة والثلاثين، قد اتجه لدراسة الرياضيات العربية خاصة، وعالجها في رسالة الدكتوراه التي قدمها بعنوان: «نظرية الأجسام الكروية لمينيلاوس السكندري في تصويب أبي نصر منصور بن علي بن عراق» (١٩٣٦م). وقد أخذ مانفرد أولمن (١٩٣١م) على عاتقه إعداد الجزء الخاص بـ «الطب والعلوم الطبيعية والعلوم الخفية في الإسلام» لدليل الاستشراق، وأخذ ماتياس شرام على عاتقه إعداد الجزء الخاص بـ «الرياضيات والفلك والطبيعيات» في الكتاب نفسه.

علم الآثار وتاريخ الفن

برز في ميدان علم الآثار الإسلامية وتاريخ الفنون الإسلامية، بعد هجرة ريشارد إتنجهاوزن (١٩٠٦م)، كورت إردمن (١٩٠١–١٩٦٤م) إلى جانب إرنست كونل (١٨٨٢–١٩٦٤م) الذي ظل حتى مماته يبحث ويدرس بلا كلل أو ملل. من أعمال كورت إردمن نذكر: «السجادة الشرقية اليدوية – محاولة لرسم تاريخ لها» (١٩٥٥م)، «السجادة التركية في القرن الخامس عشر» (١٩٥٧م)، «أوروبا والسجادة الشرقية» (١٩٦٢م)، «حروف عربية كزخارف في الفن العربي بالعصر الوسيط» (١٩٥٣م)، «الكرفان سراي في الأناضول في القرن الثالث عشر» (١، ١٩٦٣م). وهناك من مؤلفات كاتارينا أوتودورن (١٩٠٨م) خاصة «الفنون الإسلامية» (١٩٤١م)، «سيراميك تركي» (١٩٥٨م)، «حفائر في رُصافة الأموية»

(١٩٥٧م)، «الفن الإسلامي» (١٩٦٤م). أمَّا أعمال كلاوس بريش (١٩٢٣م) الذي خَلَفَ إردمن في إدارة المتحف الإسلامي ببرلين فتدور حول مشكلات الفن الإسلامي الإسباني من الناحية الأثرية، وحول القصر الأموي في أُسَيْس الذي يقوم بالتنقيب عنه. وقد حصلت دوروتيا دودا (١٩٣٧م) على الدكتوراه عام ١٩٦٤م برسالة عن رسوم الكتب أيام الجلائريين، وهي عاكفة حاليًّا على إعداد فهرس لزخارف الأسقف والجدران المتخَذة من الخشب والحجر، ولأعمال المرمر والحجر الأخرى في مجموعة فرعون ببيروت. وينبغي أن نشير في هذا المقام إلى مؤلَّف ماكس فايسفايلر (١٩٠٢م) «فن التجليد الإسلامي في العصر الوسيط» (١٩٦٢م) ومؤلَّفه الآخر الذي ظهر (كنشرية في إطار عملية تبويب المخطوطات الشرقية في ألمانيا) «ألبومات سراي – مجلدات لصقية لديتس من المجموعات البرلينية» (١٩٦٤م) من إعداد م. س. بشير أوغلو. وهناك مجلد آخر عن الرسوم الإسلامية الصغيرة يُعدُّه ي. ستخوكينه وب. فلمنج وب. لوفت. أمَّا أنا فقد كتبتُ مقالًا في «نصوص في تحريم التصوير في الإسلام» (١٩٦٠م) وأكتب حاليًّا مقالًا عن تحريم الصور عند الشيعة.

الوضع الراهن في العالم الإسلامي

العالم الإسلامي يتطور تطورًا عميقًا شاملًا، وتفرض الاتجاهات الحديثة فيه نفسها أكثر فأكثر. ويفتح هذا التحوُّل ميدانًا جديدًا أمام الدراسات الإسلامية، تتلخص مهمتها فيه في التعرُّف على عملية التحوُّل وفي تحليلها تحليلًا موضوعيًّا ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا.

وقد تعددت المؤلفات التي نُشرت في هذا الميدان حديثًا، ونقتطف منها جانبًا نذكره على سبيل المثال: بقلم فالتر براونه (١٩٠٠م) «الشرق الإسلامي بين الماضي والمستقبل» (١٩٦٠م)، ومن نشر رودي بارت «عالم الإسلام والعصر الحاضر»، سلسلة من المحاضرات المستقلة لنفر من المتخصصين (١٩٦١م)، ومن أعمال يورج كريمر (١٩١٧–١٩٦١م) «التجديد الإسلامي والتراث الإغريقي» (١٩٦٢م)، وبقلم رودولف شتروتمن (١٨٧٧–١٩٦٠م) «الدول الإسلامية والغرب المسيحي اليوم» (١٩٥٩م)، وبقلم جوستاف أ. فون جرونيباوم (١٩٠٩م) «المشكلة الفكرية في التحوُّل إلى الغرب من وجهة نظر العالم العربي» (١٩٥٩م)، ومن أعمال فريتس شتيبات (١٩٢٣م) «العالم العربي في عصر القومية» (في الطبعة الجديدة من «تاريخ العلم العربي» لفرانتس تشنر، ١٩٦٤م)، و«القومية والإسلام عند مصطفى كامل – دراسة في التاريخ الفكري للحركة الوطنية المصرية» (١٩٥٦م)

و«إيران بين الدول العظمى ١٩٤١–١٩٤٨م» (١٩٤٨م)، وبقلم رودي بارت «في مشكلة المرأة في العالم العربي الإسلامي» (١٩٣٤م)، وبقلم يوخن جنتس «فتاوي تونسية عن الصيام في رمضان» (١٩٦١م).

وهناك مجموعة كبيرة من الدراسات تدور حول الأوضاع في تركيا كتبها جوتهارد يشكه (١٨٩٤م)، منها: «في أزمة الإسلام بتركيا» (١٩٤٤م)، «الإسلام في تركيا الجديدة» (١٩٥١م)، «الوضع الراهن للإسلام في تركيا» (١٩٥٩–١٩٦١م)، «الخلافة الصورية عام ١٩٢٢م» (١٩٥١م)، «في مشكلة المرأة في تركيا» (١٩٥٩م). وقد اهتم يشكه منذ فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى اهتمامًا شديدًا دقيقًا بالأحداث في تركيا وأنشأ تقويمات تضمها، آخرها صدر عام ١٩٦٥م وعالج الفترة من عام ١٩٥٢م إلى ١٩٦١م. أما أوتو شبيس (١٩٠١م) فقد كتب في المجلد ٢٥ من «عالم الإسلام» عن «النثر التركي المعاصر» (١٩٤٣م)، وعالج في دليل الاستشراق «الأدب التركي الحديث» و«الأدب الشعبي التركي» (١٩٦٣م)، وأنشأ «منتخبًا من الأدب التركي الحديث» (١٩٥٧م)، وألَّف مقالًا يعالج موضوع «الفلاح التركي في الأدب القصصي» (١٩٥٦م). وأما أنيماري شيمل (١٩٢٢م) فقد قدمت لأفكار المجدد الهندي السير محمد إقبال وترجمت من أعماله «كتاب الخلود» و«رسالة الشرق» من اللغة الفارسية (١٩٥٧–١٩٦٣م)، وألَّفت مقالة عن رواية باللغة السندية تدور حول تنشئة المرأة (١٩٦٤م). ولا يفوتنا أن ننوِّه إلى طرف من أعمال برتولد شبولر (١٩١١م) «وضع المسلمين في روسيا منذ عام ١٩٤٢م» (١٩٥٠م) و«وضع المسلمين في جنوب شرق أوروبا منذ عام ١٩٤٥م» (١٩٥٢م)، و«آسيا الوسطى تحت السيطرة السوفيتية» (١٩٦٥م).

الدراسات العربية منذ عام ١٩٣٣م

ظهرت في ميدان الدراسات العربية مؤلفات ونشريات كثيرة في العصر الحديث كما حدث في ميدان الدراسات الإسلامية، وبدأت مشروعات بحث هامة تتخذ طريقها إلى التنفيذ وتبشر بنتائج قيمة.

تاريخ اللغة والنحو

أتحفنا المستشرق يوهان فوك (١٨٩٤م) — مؤلف «الدراسات العربية في أوروبا» (١٩٥٥م)، ذلك الكتاب الذي أشرنا إليه من قبل — بكتاب أساسي في تاريخ اللغة العربية هو «العربية – بحوث في تاريخ اللغة العربية والأسلوب العربي» (١٩٥٠م)، ولدينا من أعمال ألفرد بلوخ/بازل (١٩١٥م) بحوث بعنوان: «النَّظْم واللغة في اللغة العربية القديمة» في الأوزان والتراكيب، تُعتبر ملحقًا ثمينًا لأعمال رِكندورف. وينوي أريل بلوخ — الموجود حاليًّا في بركلي بكاليفورنيا (١٩٣٣م)، صاحب الدراسة «الاتباع في اللغة العربية الفصحى» (١٩٦٥م) — أن ينشئ قريبًا كتابًا في تراكيب الجمل بالعربية الفصحى، كذلك ينوي فولفجنج رويشل (١٩٢٤م) — صاحب الدراسة المسماة «الخليل بن أحمد، أستاذ سيبويه، نحويًّا» (١٩٣٩م) — إنشاء دراسة كبيرة عن «السمة والزمن في العربية الفصحى»، كما ينوي يوهان كارل تويفل (١٩١٦م) وضع «دراسة مقارنة للأسلوب في العربية والألمانية». وهناك كتاب «أسرار البلاغة» للجرجاني، أصدره وترجمه هِلموت ريتر (١٩٥٤ و١٩٥٩م).

أمَّا المقالات المتفرقة الخاصة بتراكيب الجمل فنذكر منها: من أعمال أنتون شبيتالر (١٩١٠م) مقالًا بعنوان: «تركيب «ما راعه إلا بـ...» وما إليه» (١٩٥٢م)، و«تركيب «الحمد لله» وما إليه – دراسة في تركيب الجمل العربية في الأزمنة الوسطى والحديثة» (١٩٦٢م)،

ومن أعمال هانس فير (١٩٠٩م): «القوالب الجامدة في تركيب جمل عربية كتعبير وجداني» (١٩٥١م)، «أفعل التفضيل في العربية» (١٩٥٢م)، «في وظيفة النفي في اللغة العربية» (١٩٥٣م)، ومن أعمال هانس فير أيضًا: «خصائص اللغة العربية الفصحى الحديثة مع مراعاة تأثير اللغات الأوروبية» (١٩٣٤م)، و«تطور اللغة العربية المكتوبة في الحاضر ورعايتها التقليدية» (١٩٤٣م). وهناك بقلم ريناته تيتس-ياكوبي (١٩٣٦م) «جملة الشرط وتعبير الشرط في القرآن» (١٩٦٣م)، وبقلم أدولف دِنْتس (١٩٣٥م) «الخاصية الصوتية لحروف الحنجرة في اللغة العربية وتبويبها حسب علم الأصوات (١٩٦٤م).

أمَّا كتب النحو الخاصة بالتدريس فقد ظهر منها في الفترة التي نعالجها: من تأليف كارل بروكلمَن «النحو العربي»، الطبعة الثانية عشرة مجددة (١٩٤٨م)، وظهرت الطبعة الثالثة عشرة (١٩٥٣م) والرابعة عشرة مجددة بقلم مانفرد فلايشهمر (١٩٦٠م). ومن وضع إرنست هاردر «النحو العربي الصغير»، جدده رودي بارت (الطبعة الثالثة ١٩٣٨م، الطبعة العاشرة ١٩٦٤م).

كذلك صدرت أبحاث كثيرة جدًّا في اللهجات الحديثة، منها: بقلم فولفديترش فيشر (١٩٢٨م) «أدوات الإشارة في اللهجات العربية الحديثة» (١٩٥٩م)، وبقلم هانس رودولف زنجر (١٩٢٥م) «أدوات الاستفهام في العربية الحديثة» (١٩٥٨م)، وبقلم هاينتس هوجو جروتسفلد (١٩٣٣م) «قواعد نطق وتصريف اللغة العربية الدمشقية» (١٩٦٤م)، وبقلمه أيضًا بالاشتراك مع أريل بلوخ «نصوص عربية دمشقية» (١٩٦٤م)، وله أيضًا «من فم شاهدين – دراسة في التعرُّف على نظام نطق اللهجات العربية في سوريا ولبنان» (١٩٦٥م)، و«قواعد اللهجة العربية السورية الدارجة في دمشق» (١٩٦٥م). وبقلم شتيفان فيلد (١٩٣٧م) «وظيفة التعبير عن النتيجة لاسم الفاعل في اللهجات السورية الفلسطينية من اللغة العربية» (١٩٦٤م)، وبقلم يوزوا بلاو «تركيب الجمل في لهجة الفلاحين الفلسطينيين ببيرزيت» (١٩٦٠م)، وبقلم ميشال جحا «اللهجة العربية في بِشْمِزين» (١٩٦٤م)، وبقلم جيورج كروتكوف «دراسات بغدادية» (١٩٦٤م)، ومن أعمال هانس رودولف زنْجر «نصوص عربية بلهجة مدينة تِطوان» و«المميزات الأساسية لمورفولوجيا اللهجة العربية في تِطوان» (١٩٥٨م)، و«قواعد اللهجة العربية لتونس» (تحت الإعداد)، وبقلم إيفالد فاجنر (١٩٢٧م) «تركيب الجمل في لهجة مَهْرَة» (١٩٥٣م) و«لهجة عبد الكُوري» (١٩٥٩م)، ومن أعمال شتيفان فيلد (١٩٣٧م) «اللهجة العربية في تَعِز» و«أسماء أماكن لبنانية» (تحت الإعداد).

المعاجم

نبدأ عرضنا للدراسات الخاصة بموضوع المعاجم بالإشارة إلى طائفة قليلة من المقالات الهامة: بقلم شتيفان فيلد (١٩٣٧م) «كتاب العين ودراسات المعاجم العربية» (١٩٦٥م)، وبقلم فولفديترش فيشر (١٩٢٨م) «الصفات الدالة على الألوان والأشكال في لغة الشعر العربي القديم» (١٩٦٥م)، ومن أعمال باول كونيتش «أسماء عربية للنجوم في أوروبا» (١٩٥٩م) و«بحوث في قائمة الأسماء العربية للنجوم» (١٩٦١م)، وبقلم هِلموت جيتيه (١٩٢٧م) «دراسات في المعاجم العربية» (١٩٦٤م).

أما يورج كريمر (١٩١٧–١٩٦١م) فقد نشر مقالات في المجلات اتخذ فيها رأيًا في الناحية النظرية من موضوعات المعاجم العربية، منها «دراسات في المعاجم العربية القديمة» (١٩٥٣م)، «مجموعات أوجست فيشر الخاصة بإنشاء قاموس عربي» (١٩٥٥م). على أن أبرز نشاط لكريمر في هذا الميدان هو إنشاء معجم جديد للعربية الفصحى يفي بالمتطلبات العلمية. وقد بدأ كريمر في أول الأمر متبعًا توجيهًا من إنُّو لِيتمَن، بإخراج الملاحظات التي دوَّنها تيودور نولدكه بيده في نسخته الخاصة من القاموس العربي اللاتيني لفرايتاج وحدها لتكون في متناول عالم المتخصصين، وهكذا أخرج «معجم شواهد تيودور نولدكه للغة العربية الفصحى» (١٩٥٢م و١٩٥٤م) على هذا النحو، وشمل الحرف الأول من الأبجدية: حرف الألف. ولكن استئناف المشروع توسع توسعًا كبيرًا من الناحية الشخصية ومن الناحية الموضوعية، وظهر هذا التوسع في إعداد الجزء الأكبر من حرف الكاف، الذي يُسمَّى «معجم اللغة العربية الفصحى، المعتمِد على مجموعات أوجست فيشر وتيودور نولدكه وهرمن ركندورف ومصادر أخرى، تنشره الجمعية الألمانية الشرقية». في هذا المعجم تُذْكَر الاستشهادات العربية مكتوبة بالحروف اللاتينية، وتُعطَى المعاني باللغة الألمانية والإنجليزية. وقد ظهرت الملزمة الأولى عام ١٩٥٧م وأعدها يورج كريمر وهِلموت جيتيه (١٩٢٧م) بالاشتراك مع أنطون شبيتالر (١٩١٠م)، وظهرت الملزمة الثانية عام ١٩٦٠م واشترك في إعدادها هِلموت وأ. شبيتالر وي. كريمر، وخرجت الملازم من الثالثة إلى السابعة بين عامَي ١٩٦٢ و١٩٦٥م من إعداد مانفرد أولمن (١٩٣١م) بالاشتراك مع أنطون شبيتالر. وقد أصبح القاموس الآن، رغم عدم اكتماله، عُدَّة لا غنى عنها للمشتغل بالدراسات العربية، ونأمل أن يتقدم العمل في هذا القاموس العظيم الذي يُعتبر مثلًا نموذجيا لنشاط العلماء الألمان، فيشمل الأحرف الأخرى الباقية بعد أن ينتهي من حرف الكاف عام ١٩٦٦م.

من الأعمال الأخرى في ميدان المعاجم العلمية نشير بصفة خاصة إلى قاموس هانس فير (١٩٠٩م) الممتاز «قاموس عربي للغة الكتابة في العصر الحاضر» (١٩٥٢م)، الذي زاد بملحق إضافي (١٩٥٩م) وتُرجم إلى الإنجليزية (١٩٦١م)، والذي يُعتبر أداة لا غنى عنها لقارئ النصوص العربية الحديثة. وقد أخرج ج. كرال في عام ١٩٦٤م قاموسًا ألمانيًّا عربيًّا خفيفًا. وشرع جوتس شريجله (١٩٢٣م) في إخراج قاموس ألماني عربي كبير ظهرت منه ملزمتان حتى الآن (١٩٦٣ و١٩٦٥م). ونشير في ختام هذا العرض إلى القاموس الألماني العربي للغة الدارجة في فلسطين ولبنان» الذي أخرجه ليونهارد باور بالاشتراك مع أنطون شبيتالر في طبعة ثانية (١٩٥٧م).

شعراء عرب

جرت أبحاث موضوعية في أفرع تفصيلية من الشعر العربي تتسم بالفائدة والتبيان، منها ما نشره جوستاف أ. فون جرونيباوم (١٩٠٩م) في مجلده الجامع «النقد وفن الشعر» (١٩٥٥م)، من مقالات تكوِّن سلسلة من الدراسات الهامة في تاريخ الأدب العربي: «في الشعر العربي ونموه من عام ٥٠٠ إلى عام ١٠٠٠ الميلادي»، و«مفهوم الطبيعة في الأدب العربي»، و«النقد الأدبي العربي في القرن العاشر الميلادي»، و«مفهوم الانتحال في النقد العربي». وهناك من أعمال المؤلف نفسه دراسة بعنوان: «مساحة الواقع في الأدب العربي المبكر» (١٩٣٧م). وهناك بقلم جوستاف ريشتر (١٩٠٦–١٩٣٩م) «في تاريخ نشأة القصائد العربية القديمة» (١٩٣٨م) ومن أعمال إريش بروينلش (١٨٩٢–١٩٤٥م) «في مسألة أصالة الشعر العربي القديم» (١٩٢٦م) و«محاولة انتهاج نهج تأملي تاريخي أدبي في الشعر العربي القديم» (١٩٣٧م)، وبقلم مانفرد أولمن (١٩٣١م) «بحوث في شعر الرجز» (١٩٦٦م)، وبقلم إيفالد فاجنر (١٩٢٧م) «أبو نُواس – دراسة في الأدب العربي بالعصر العباسي الأول» (١٩٦٥م) و«أدب التفاخر العربي ومكانه من تاريخ الأدب العام» (١٩٦٢م)، وبقلم أولريش تيلو «أسماء الأماكن في الشعر العربي القديم» (١٩٥٨م). وعالج جيورج ميش (١٨٧٨م) فلسفيًّا موضوع «تصوير البطل العربي ذاته في أدب ما قبل الإسلام» (١٩٥٥م)، ووضع أوجست فيشر (١٨٦٥–١٩٤٩م) وإريش بروينلش (١٨٩٢–١٩٤٥م) مَعينًا لا غنى عنه للكشف عن استشهادات الشعراء في مدونات الشرح العربية: «فهرس الشواهد – فهرس القوافي والشعراء أصحاب الشواهد الشعرية المستعملة في شروح الشواهد العربية وما إليها من الكتب» (١٩٤٥م).

أما معالجة النصوص وإخراج الطبعات في الحقبة الأخيرة فنشير منها إلى كتاب هِلموت جيتيه «مقتطفات الشاعر عدي بن الرقاع» (لم يظهر بعد)، وكتاب إيفالد فاجنر «رواية ديوان أبي نواس ومخطوطاته» و«ديوان أبي نواس، جزء أول» (١٩٥٨م)، وعمل فيلهلم هونرباخ (١٩١١م) وهِلموت ريتر «مواد جديدة في دراسة الزجل»؛ جزء أول: ابن قزمان، جزء ثان: مدغليس (١٩٥٠ و١٩٥٢م).

واتجه جوتهولد فايل (١٨٨٢–١٩٦٠م) في كتابه «أساس ونظام الأوزان العربية القديمة» (١٩٥٨م) اتجاهًا جديدًا في تأويل عَروض الخليل بن أحمد، ولكن الكلمة الحاسمة في هذا الموضوع لم يجْرِ بها قلمُ أحدٍ بعد. وكان شتيفان فيلد (١٩٣٧م) قد شرع في دراسات تدور حول الأوزان الشعرية العربية.

النثر العربي

قلَّت الموضوعات التي يتناولها البحث حديثًا في ميدان الأدب النثري قلة نسبية، توشك أن تصل إلى درجة الندرة. من الأبحاث التي أُجرِيَت في هذا الميدان نشير إلى بحث إيكرت شتيتر (١٩٣٨م) «قوالب وتخطيطات في الحديث» (١٩٦٥م)، وإلى ما يقوم به هريبرت بوسَّه (١٩٢٦م) من بحثٍ في النوع الأدبي المختص بمرآة الأمراء عند المسلمين، وإعدادٍ لثبت مفصل بالمخطوطات والنصوص والأعمال الثانوية. ولدينا بقلم ألبرت ديتريش (١٩١٢م) دراسة عن «كتاب الجليس والأنيس للمُعافَى، كتاب أدب ثمين» (١٩٥٥م)، وبقلم ماكس فايسفايلر (١٩٠٢م) «قصص عربية قديمة وخلفيتها التاريخية» (١٩٥٨م)، وبقلم باول كاله (١٨٧٥–١٩٦٤م) «منار الإسكندرية – تمثيلية لخيال الظل في مصر» (١٩٣٠م)، وبقلم فيلهلم هونرباخ (١٩١١م) «مسرح الظل في شمال أفريقيا» (١٩٥٩م).

وكثيرًا ما اهتم الباحثون في الحقبة الأخيرة بمجموعات الأمثلة، خاصة بالمجموعات الحديثة. وتولَّدت عن هذا الاهتمام أبحاث منها: «مجموعات الأمثلة العربية الفصيحة، وخاصة مجموعة أبي عبيد» (١٩٥٤م) بقلم رودولف زلهايم (١٩٢٨م)، ومن أعمال إنُّو لِيتمَن (١٨٧٦–١٩٥٨م) «حكمة شرقية في الأمثال – أمثال وألغاز عربية» (١٩٣٧م) و«أمثال وألغاز قاهرية» (١٩٣٧م)، وبقلم سعيد عبود «٥٠٠٠ مثل عربي من فلسطين» (نشرها عام ١٩٣٣م)، وبقلم مارتن تيلو «٥٠٠٠ مثل عربي من فلسطين» (ترجمها من العربية إلى الألمانية عام ١٩٣٧م)، وبقلم ز. د. ف. جويتاين «يمنيات – أمثال وعبارات من وسط اليمن» (١٩٣٤م).

من ترجمات النصوص العربية النثرية نذكر: «طوق الحمامة – في الحب والمحبين لأبي محمد علي بن حزم الأندلسي» (١٩٤١م، تكرر طبعه مرارًا) لماكس فايسفايلر. وله أيضًا «زخارف حب عربية» (١٩٥٤م) و«حكايات عربية» (١٩٦٥م)، ومن ترجمات هانس فير (١٩٠٩م) «كتاب الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة، حكايات عربية» ترجمة جزئية (١٩٥٩)، وكان فير قد نشر النص الأصلي عام ١٩٥٦م. ومن ترجمات إنُّو لِيتمَن «حكايات عربية» (١٩٣٥م) و«حكايات وطرائف عربية من مصر» (١٩٥٥م) وكان قد جمعها من الرواية الشفهية.

وقد لقي الأدب العربي الحديث (نثره وشعره) الاهتمام من كارل بروكلمَن الذي خصه بعرض مستفيض في الجزء الثالث من الملحق (١٩٤٢م، من ص١ إلى ص٤٩٩)، ولكن عدد الترجمات والدراسات التحليلية للمؤلفات المميزة لذلك الأدب النثري الحديث قليل حتى الآن، من ذلك «محمود تيمور» (١٩٣٢م) و«إبراهيم المويلحي» (١٩٥٤م) لجوتفريد فيدمر. ولا يزال على الدراسات العربية في ألمانيا الكثير في هذا الميدان. ويعمل أريل بلوخ (١٩٣٣م) حاليًّا في إعداد منتخَبٍ من مؤلفات الكُتَّاب العرب المعاصرين.

مؤسَّسات ومنظمات

مجلات وسلاسل

لا يعيش المستشرقون في الفراغ، شأنهم في ذلك شأن ممثلي الأفرع الأخرى من الدراسات، بل يضعون أنفسهم، وإن بدا عملهم شبيهًا بعمل العلماء الخاصة شبهًا كبيرًا، في خدمة المجتمع الذي ينتمون إليه، والذي يموِّلهم ويشجعهم. ويتضح هذا في أن تخصص الاستشراق له في كل جامعة على الأقل كرسي يمثله (أنشئت كراسي الاستشراق في فرايبورج وكيل وجيسن منذ أعوام قليلة)، ومجموعة من وظائف المعيدين تتيح المجال لتنشئة جيل المستقبل من المستشرقين. وهناك عون آخر جوهري يتلقاه الاستشراق ويتمثل في المكتبات المتخصصة اللازمة لكل عمل علمي. فكل قسم للدراسات الشرقية أو معهد للدراسات الشرقية بأي جامعة من الجامعات يمتلك مكتبة كبيرة أو صغيرة خاصة بالقسم أو المعهد تكتمل وتتسع على الدوام. علاوة على الأقسام الخاصة بالاستشراق في مكتبات الجامعات نفسها (وفي دار الكتب البافارية في ميونيخ، ودار كتب غرب ألمانيا في هامبورج). وترعى مكتبة الجامعة الخاصة بجامعة توبنجن الاستشراق بصفتها ما يُسمى: «منطقة التجميع الخاصة»، وتتلقى بهذه الصفة من جمعية البحث الألمانية — تلك الجمعية التي تموِّل الكثير من مشروعات البحث المختلفة — اعتمادات كبيرة جدًّا للقيام بشراء المؤلفات التي تصدر في الخارج متصلة بالاستشراق بصفة منتظمة. ويمكِّن نظام الاستعارة في مكتبات الجامعات الألمانية المستشرقين، الذين لا يجدون بغيتهم من الكتب في مكتبة الجامعة التي يختلفون إليها، من الحصول عليها من مكتبة أخرى بالطريق الرسمي. ونود في هذا المقام أن نذْكُر بالامتنان نشاط أمناء المكتبات الاستشراقية المتخصصين الذين يُعْنَون في سكون تام، وفي

غير كَلَف بالإعلان عن أنفسهم، بشراء النشريات التي تظهر حديثًا أو التي تعرضها مكتبات الكتب القديمة، ويُعِدُّون بذلك للمتخصصين وسائل العمل التي لا غنى لهم عنها، أو التي تمهِّد لهم التصدي لمشروعات للبحث يعقدون عليها العزم، ولا أقل من أن نذكر اسمًا واحدًا ينوب عن الجميع، اسم أمين مكتبة جامعة توبنجن المستشرق الهادئ إميل كومرر.

والمستشرقون الألمان منظمون في جمعية تضمهم هي الجمعية الشرقية الألمانية ذات كيان «الاتحاد المسجل»، التي تقوم منذ ١٢٠ سنة، والتي تجمع المستشرقين الألمان، ومن بينهم ممثلو الدراسات المصرولوجية والهندولوجية والصينولوجية واليابانولوجية والدراسات الأفريقية. أُنشِئَت الجمعية الشرقية الألمانية في عام ١٨٤٥م ثمرة سعي المستشرق المتخصص في الدراسات العربية هاينرش ليبرشت فلايشر في لايبتسج، وأُعِيدَ إنشاؤها بعد الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٨م في ماينتس ثمرة مبادرة هِلموت شيل (١٨٩٥م)، لتمثل — تحت رئاسة أعضاء مجلس إدارتها العاملين بصفة شرفية — مصالح المستشرقين الألمان، ولتقيم علاقات لهم مع ممثلي هذا التخصص من الأجانب، ولتنظم بصفة دورية كل عامين أو ثلاثة أعوام مؤتمرًا ألمانيًّا داخليًّا للمستشرقين (انعقد المؤتمر الأخير في الصيف في مدينة هايدلبرج).

وللجمعية الشرقية الألمانية منذ ١٩٦١م معهد ألماني للدراسات الشرقية في بيروت مهمته القيام بموضوعات بحث خاصة، وعلى تدعيم الصلة بين الاستشراق والبلدان العربية، وبملاحظة عمليات الطبع التي تجريها الجمعية في المطابع العربية. ويهدف هذا المعهد بصفة خاصة إلى إعطاء المستشرقين الألمان، وخاصة المتخصصين في الدراسات العربية والدراسات الإسلامية، والشباب منهم، فرصة متابعة دراساتهم وبحوثهم في فترة إقامة تستمر بين سنة وسنتين في ربوع الشرق. وقد نهض هانس روبرت رويمر (١٩١٥م)، بصفته المدير الأول للمعهد، بإنشائه واستحق الثناء والتقدير على ما بذل من جهد في هذا السبيل. وظل رويمر مديرًا للمعهد حتى استُدعي إلى جامعة فرايبورج لشغل كرسي الاستشراق بها عام ١٩٦٣م، فخلَفه في إدارة المعهد فريتس شتيبات (١٩٢٣م).

وتظهر مجلة الجمعية الشرقية الألمانية بانتظام حاملة المقالات العلمية المتخصصة، ونقد الكتب في ميادين الاستشراق جميعًا، بما في ذلك ميدان الدراسات الصينولوجية وغيره، وبلغ عدد ما صدر من مجلداتها حتى الآن ١١٥ عددًا، عكف إيفالد فاجنر على إعداد فهرس عام (صدر عام ١٩٥٥م) لمواد المجلدات المئة الأولى منها، تسهيلًا للبحث والإفادة. وهناك فضلًا عن هذه المجلة، مسلسلات نشرية تمولها الجمعية وترعاها

وهي: «دراسات في علم المشرق» و«المكتبة الإسلامية» وهي سلسلة من النشريات أنشأها هِلموت ريتر عام ١٩٢٩م. ويجد ممثلو الدراسات العربية والدراسات الإسلامية مجالًا آخر لنشر مقالاتهم ودراساتهم الصغيرة يتمثل في مجلتين أخريين غير مجلة الجمعية الشرقية الألمانية، أشرنا إليهما من قبل، هما مجلة «الإسلام» (منذ عام ١٩١٠م، في العام الواحد والأربعين حاليًّا)، ومجلة «عالم الإسلام» (منذ عام ١٩١٤م، ثم أصبحت سلسلة جديدة بترقيم جديد ابتداء من عام ١٩٥١م). وقد ظهرت من مجلة إسلاميكا التي أسسها أوجست فيشر مجلدات سبعة بين عام ١٩٢٤ وعام ١٩٣٩م. وتختص «جريدة المدونات الاستشراقية» بمناقشة الكتب المتصلة بالاستشراق ونقدها، ولا تتعدى هذا الاختصاص قط، وكانت تصدر من عام ١٨٩٨م حتى عام ١٩٤٤م واكتملت لها ٤٧ سنة من الصدور، ثم كان لريشارد هارتمَن فضل المبادرة بإعادة إصدارها منذ عام ١٩٥٣م. أما مجلة «أورينس» التي نشأت عام ١٩٤٨م واشترك في إنشائها وتحريرها هِلموت ريتر اشتراكًا جوهريًّا، والتي يقوم على تحريرها حاليًّا بعد هِلموت ريتر في فرنكفورت رودولف زلهايم، فهي تنطق باسم الجمعية الدولية لبحوث الشرق، ولا تُعتبر مجلة ألمانية إلا بتحفظ، وقد صدر منها حتى الآن ١٨ عددًا. أما سلسلة النشريات المختصة بالدراسات الإسلامية التي أسسها ج. أ. فون جرونيباوم عام ١٩٦٣م «مكتبة الشرق» فقد أشرنا إليها من قبل. ونشير في هذا المقام أيضًا إلى مجلة «الشرق» التي تختص بأحوال الشرق حاليًّا، وبأحواله الاقتصادية بالدرجة الأولى، والتي تخرج عن «اتحاد الشرق الأدنى والأوسط» في هامبورج وتتحدث بلسانه. كذلك نشير إلى مجلة «موندوس» التي يخرجها هـ. ف. بير منذ عام ١٩٦٥م باللغة الإنجليزية ويناقش فيها النشريات الألمانية العلمية الجديدة التي تختص بآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، فهي تضم فيما تضم أخبار النشريات الجديدة في صعيد الدراسات الإسلامية والدراسات العربية.

نظرة إلى الوراء ونظرة إلى الأمام

إذا نظر الإنسان نظرة إلى الوراء؛ إلى النشريات الكثيرة التي صدرت في الحقبة الأخيرة باللغة الألمانية في ميدان الدراسات الإسلامية والدراسات العربية، راعَه ضخامة ما أُنجِزَ من عمل وما هو بسبيل الإنجاز. كل دراسة تعتمد على علم متعمق وجهد صُلب وتنطق بحب عظيم للمادة التي تتخذها موضوعًا لها. ويحق للإنسان أن يفرح بما تم، ويخطئ الإنسان إن أخذه الغرور والزهو، والأحرى به أن يتواضع ويفكر في حدود المعرفة البشرية. كل دراسة في هذا الميدان هي في حقيقتها جزء صغير أو ضئيل في كلٍّ كبير، مكانه في البُعد، في المستقبل، ولا سبيل إلى بلوغه، بل إلى الاقتراب منه على أحسن الأحوال إلا بخطًى صغيرة. وينبغي على العالِم أن يعيد النظر في موقفه من حين لآخر ويتمثل ضخامة المادة التي عليه أن يحيط بها والمدوَّنات الثانوية التي زاد حجمها زيادة تجعل من المحال أن يُلِم بها، ويسأل نفسه: ألم يَهْوِ إلى لون من العزلة، وألم توشك دراساته المتخصصة أن تصبح هدفًا لذاتها؟

لا شك أن البحث العلمي العميق وحده هو الذي يأخذ بيدنا إلى أمام، ولا شك أننا لا نستطيع أن نجعله مقبولًا من كل إنسان سائغًا لكل فم. هذا إلى أن العالِم مضطر اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى الكَلَف بالثغرات، أعني إلى الاهتمام بمراكز ثقل معينة، وإلى قبول الاكتفاء من الميادين الأخرى بما يكتفي به غير المتخصص فيها من علم. ولكن لا بد أن تكون مراكز الثقل التي يوجه إليها اهتمامه مراكز ثقل حقًّا وصدقًا، ولا ينبغي أن تكون مجرَّد غرائب وعجائب، والفيصل في الأمر هو تقدير ما إذا كانت المعلومات والآراء التي يرجو الحصول عليها نتيجة لبحثه تبشر، في غير كثير من التنكب، وفي وقت معلوم معقول، بثمرة تفيد جماعة أوسع من إخوانه البشر.

وقد يُؤتَى المتخصص في هذه الحالة — المتخصص في العلوم الإسلامية أو المتخصص في العلوم العربية — فرصة تعريف جمهور كبير بميدان نشاطه العلمي مباشرة بمحاضرة عامة يلقيها عليه أو كتيب مبسط يصنفه له، فعليه أن ينتهزها ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وألا يتشبث بوجهة نظر الفن للفن التي تقادم عهدها. ونحن — معشر المستشرقين — نتمتع بميزة الجلوس في مكانٍ ذي نافذة نطل منه على الشرق الساحر الجذاب. والآخرون على حق عندما ينتظرون منا أن نعرِّفهم من حين لآخر بالعالم الذي نحيط به علمًا، ولو سلكنا في ذلك سبيل كتاب مؤقت. وسنجد في الاهتمام الواعي لجمهور المستمعين الكبير الذي نُلقي عليه ما نصُفُّ من محاضرات، وفي الاستجابة المدهشة لجمهور القارئين الواسع المنتشر الذي ندفع إليه ما نصُفُّ من كتب، ما يعوض الجهد الذي نبذله في صب العلم المتخصص في قالب مبسط يفهمه العامة.

وهناك آمال وتمنيات تختلج في أنفسنا في أمر توسيع الاستشراق الألماني وتطويره، فنحن، على قدر ما أتبين، مفتقرون في الوقت الحاضر إلى عالِم متخصص في عملية الإصلاح والتجديد التي تتناول الشريعة الإسلامية، وخاصة ما يتصل منها بالأحوال الشخصية. وإذا كان لدينا الآن تمثيل قوي حاليًّا للبحوث الخاصة باللهجات في الدراسات العربية، فإن عدد الأبحاث التي تتناول تاريخ الأدب لا يزال قليلًا نسبيًّا، ولا يزال البحث في الأدب العربي الحديث في بدايته لم يتجاوزها إلا قليلًا. وهناك طائفة كبيرة من الموضوعات والمشكلات الهامة تتطلب المزيد من الجهد، ولدينا جيل جديد مؤهل نابِه مستعد للعمل، والدلائل كلها توحي بأن أفرع علوم العربية والعلوم الإسلامية ستستمر في الازدهار والنماء بالجامعات الألمانية في المستقبل أيضًا.

وقد يؤدي استقلال الدراسات الإسلامية وتحولها إلى مادة قائمة بذاتها، مع التطور الجديد الذي شمل الدراسات العربية، إلى تغييرات في نظام تمثيل هذه الدراسات بالجامعات في وقت قريب. فالدراسات الإسلامية (وتتوسطها اللغة العربية لغةً رئيسية) تفرعت من الدراسات الساميَّة، وأدى هذا إلى ما جرت عليه العادة حتى الآن، من قيام أستاذ كرسي الدراسات الإسلامية بتمثيل مادة الدراسات الساميَّة أيضًا، أو على العكس، من اشتراط تضلع المستشرق من الدراسات الساميَّة أولًا ليشغل كرسي الاستشراق، وليمثل الدراسات الإسلامية بصفة توشك أن تكون إضافية فقط. كان يُطلب من أستاذ الإسلاميات إذن معرفة اللغات العربية والفارسية والتركية، وعلاوة عليها معرفة العبرية والسريانية والآرامية والحبشية، يعني معرفة ست لغات شرقية شرطًا أساسيًّا لشغل المنصب. ومن البديهي

أن الإثقال الشديد في الصعيد اللغوي (بما في ذلك القيام بالتدريس اللغوي في القسم) أدى إلى المساس بالدرس والبحث فيما يتعلق بميدان الدراسات الإسلامية خاصة. لهذا يبدو من الضروري أن تُتخَذ خطوات لتصفية ما لا بد من تصفيته. فإن الأستاذ الذي يمثل مادة الدراسات الإسلامية يملأ بها وقته كله، والأفضل ألا يُكلَّف بتدريس السريانية والآرامية والإثيوبية، أو أية لغة ساميَّة أخرى (غير اللغة العربية). على أن هذا الفصل يحمل في طياته صعوبات تهدد من الناحية العلمية بزيادة، إن لم يكن بمضاعفة، عدد كراسي الاستشراق. وربما أمكن الالتجاء إلى تخصيص كراسي الاستشراق القائمة حاليًّا، خاصة بالجامعات المتجاورة؛ هذا للدراسات الإسلامية يقوم عليه أستاذ في الإسلاميات، وذاك للدراسات الساميَّة يقوم عليه أستاذ في الساميَّات. ولكن هذه كلها أفكار وإمكاناتُ تطوير تشير إلى مستقبل بعيد. وإذا كنا نعبر عنها هنا، فقصْدُنا من هذا أن نبيِّن أن الدراسات الإسلامية (باللغة العربية لغة أساسية) قد استقلت تمامًا وأصبحت مادة قائمة بذاتها، وأنه يُستحب أن يركز الأستاذة الجامعيون الذين يختصون بهذه المادة، جهدهم كله مستقبلًا في هذا الميدان من الدرس والبحث، وهو ميدان له أهميته، وله تشعباته الكثيرة.

فهرس بأسماء المستشرقين
الذين ورد ذكرهم بالكتاب

Ahlwardt, Wilhelm
Ahrens, Karl
Altheim F.
Andrae, Tor
Babinger, Franz
Bachmann, L.
Bachmann, Peter
Bähr, H. W.
Bauer, Hans
Baure, Leonhard
Becker, Carl Heinrich
Beldicanu Steinherr, Irene
Belot, J. B.
Berchem, Max van
Bergsträsser, Gotthelf
Bertholet, Alfred
Björkman, Walter
Blau, Josua
Bloch, Alfred
Bloch, Ariel
Bode, Wilhelm von
Boer, T. H. de
Bräunlich, Erick
Braun, Hellmut
Braune, Walther
Bremer, Marie Luise
Brisch, Klaus
Brockelmann, Carl
Brönnle, P.
Brugsch, Mohammed
Bürgel, J. Christoph
Buhl, Frants
Busse, Heribert
Caskel, Werner
Caspari – Wright
Daniel, Norman
Dedering, S.
Denz, Adolf

Dieterici, Friedrick
Dietrich, Albert
Diez, Ernst
Diewald – Wilzer, Susanna
Dubler, César E.
Duda, Dororthea
Duda, Herbert w.
Eilers, Wilhelm
Ess, Josef van
Erdmann, Kurt
Ernst, Hans
Erpenius, Thomas
Ettinghausen, Richard
Euting, Julius
Fischer, August
Fischer, Wolfdietrich
Fleischer, Heinrich Leberecht
Fleischhammer, Manfred
Fleischmann, Manfred
Flemming, Barbara
Flügel, Gustav
Forrer, Ludwig
Fraenkel, Siegmund
Freyer, Barbara
Freytag, Georg Wilhelm
Fritshc
Fück, Johann
Gätja, Helmut
Galland, Antoine
Garbers, Karl
Geiger, Abraham
Stetter, Eckert
Stieglecker, Hermann
Stiehl, R.
Strothmann, Rudolf
Stumme, Hans
Suter, Heinrich
Taeschner, Franz
Teufel, Johann Karl
Tholo Martin
Thilo, Ulrich
Thorbecke, Heinrich
Thorning, Hermann
Tietz – (Jacobi), Renate
Topf, Erich
Tschudi, Rudolf
Ullmann, Manfred
Venerabilis, Petrus
Voigt, Wolfgang
Vollers, Karl
Wagner, Ewald
Wahrmund, Adolf
Walzer, Richard
Wangelin, Helmut
Wehr, Hans
Weil, Gotthold
Weil, Gustav
Weissbach, F. K.

Weisweiler, Max
Wellhausen, Julius
Wensinck, Arent Jan
Wernst, Paul
Wetzstein, Johann Gottfried
Widmer, Gottfried
Wiedemann, Eillhard
Wild, Stefan
Winkler, Hans Alexander
Wissmann, Hermann von
Wittek, Paul
Wüstenfeld, Ferdinand

هنـــداوي